ثانيًا : حقيقة الإيمان

الحديث الرابع: حـــلاوة الإيمـــان

عن أنس بن مـالك رضي الله عنه، عن رسـول الله ﷺ قال: «**ثلاث من كُن فيه وجـد بهن حلاوة الإيمان: أن يكـون الله ورسولـه أحب إليه ممـا سواهما، وأن يحب المرء لا يحبـه إلا لله، وأن يكره أن يعـود في الكفر بعـد أن أنقذه الله منـه كما يكره أن يُقذف في النار**». متفق عليه.

- تخريج الحديث:

١ - فتح البـاري م١ كتـاب الإيمان (بـاب حـلاوة الإيمان) ص٦٠، م١٠ كتاب الأدب (بـاب الحب في الله) ص٤٦٣. م١٢ كتاب الإكراه (بـاب اختيار الضرب والقتل والهوان) ص ٣١٥.

٢ - صحيح مسلم بشرح النـووي ج٢ (بـاب بيـان خصـال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان) ص ١٣.

٣ - سنن النسـائي ج٨، كتاب الإيمان وشرائعـه (حلاوة الإسـلام)، وأيضًا (حلاوة الإيمان)، وأيضًا (طعم الإيمان). وهي ثلاث روايات كلها عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ وردت باختلافات يسيرة في الكلمات والألفاظ.

٤ - صحيح سنن ابن مـاجه بـاختصار السنـد، تأليف محمـد ناصر الـدين الألباني. م٢ (بـاب الصبر على البلاء) حديـث رقم ٣٢٥٨، بشيء من التقديم والتأخير في العبارات.

٥ - المسند للإمام أحمد بن حنبل، ج٣، ص١٠٣، ١١٤.

- الـراوي:

أنس بن مالك بن النضر بن ضمضم بن زيـد بن حرام بن جندب بن عـامر ابن غنـم بن عدي بن النجار الإمام المفتي المقرئ والمحدث، رواية الإسلام، أبو

حمزة الأنصاري الخزرجي البخاري المدني، خادم رسول الله ﷺ، وقرابته من النساء، وتلميذه وتبعه، وآخر أصحابه موتًا.

روى عن النبي ﷺ علمًا جمًّا وعن أبي بكر وعمر وعثمان ومعاذ وأسيد بن الحضير وأبي طلحة وأمه أم سليم بنت ملحان وخالته أم حرام وزوجها عبادة بن الصامت وأبي ذر.

وروى عنه خَلْق عظيم، منهم الحسن وابن سيرين والشعبي ومكحول وعمر ابن عبد العزيز، حدثنا أنس قال: جاءت بي أم سليم إلى رسول الله ﷺ قد أزرتني بنصف خمارها وردتني ببعضه فقالت: يا رسول الله هذا أنيس ابني أتيتك به يخدمك، فادع الله له فقال: «اللهم أكثر ماله وولده». فوالله إن مالي لكثير وإن ولدي وولد ولدي يتعادون على نحو من مائة اليوم. وفي رواية عن أنس أيضًا قال: دعا لي رسول الله ﷺ فقال: «اللهم أكثر ماله وولده وأطل حياته». فالله أكثر مالي حتى إن كرمًا لي لتحمل في السنة مرتين وولد لصلبي مائة وستة.

وعن أبي خلدة قلت لأبي العالية: سمع أنس من النبي ﷺ؟ قال: خدمه عشر سنين ودعا له وكان له بستان يحمل في السنة الفاكهة مرتين وكان فيها ريحان يجيء منها ريح المسك، فصحب أنس نبيه ﷺ أتم الصحبة، ولازمه أكمل الملازمة منذ هاجر وإلى أن مات، وغزا معه غير مرة، وبايع تحت الشجرة.

وهذه من العناية الإلهية على هذا الدين ثم على أنس بن مالك، أن يدخل أنس وهو صبي صغير في بيوت النبوة يتردد إلى أمهات المؤمنين، ويستقبل الوفود، ويقدم إلى النبي ﷺ الخدمات من الماء والسواك، ويسجل كلام النبوة في قلبه وذهنه، وتنتقش الحوادث والوقفات النبوية التربوية في أعماق قلبه وذهنه، حتى تتكون سجلاً حافلاً وثروة إسلامية نادرة تتناقلها الألسن إلى

الأمصار، ثم تسجل في كتب الأحاديث.

وكانت من عناية الله على علم الحديث أن يقيض لهذا العلم الجليل رجال تفرغوا للعلم أمثال أبي هريرة وأنس بن مالك ــ رضي الله عنهم ـ الذي رأى الرسول في البيت وفي السوق وفي مسجده وفي ساحة المعركة؛ فعن موسى ابن أنس أن أنسًا غزا ثماني غزوات. وكان يقلد الرسول ﷺ حتى قال عنه أبو هريرة: «ما رأيت أحدًا أشبه بصلاة رسول الله ﷺ من ابن أم سليم. يعني أنسًا».

وكان طبيعيًا أن يتأثر بعبادة الرسول ﷺ وبخلقه ودينه؛ فعن ثمامة ـ رضي الله عنه. قال: كان أنس يصلي حتى تفطر قدماه دمًا من إطالته القيام. رضي الله وقد صفا قلبه وازدادت صلته بربه. والرواية التالية تدل على مدى استجابة دعائه، فعن ثابت البناني قال: جاء قيم أرض أنس فقال عطشت أرضوك فتردى أنس ثم خرج إلى البرية، ثم صلى ودعا، فثارت سحابة وغشيت أرضه ومطرت حتى ملأت صهريجه، وذلك في الصيف، فأرسل بعض أهله فقال: انظر أين بلغت؟ فإذا هي لم تعدُ أرضه إلا يسيرًا.

روى نحوه الأنصاري عن أبيه عن ثمامة، قلت: هذه كرامة بينة ثبتت بإسنادين).

وقد نالت أسرة أم سليم إعجاب الرسول ﷺ وحظيت بعنايته وزيارته ﷺ مما كان له أكبر الأثر في تربية أنس وتنمية مواهبه وتحمسه وتعمقه في تفهم معالم السنة ونشر أحاديثه ﷺ. حدثنا الأنصاري حدثنا حميد عن أنس «أن النبي ﷺ دخل على أم سليم فأتته بتمر وسمن فقال: أعيدوا تمركم في وعائكم وسمنكم في سقائكم فإني صائم، ثم قام في ناحية البيت فصلى بنا صلاة غير مكتوبة فدعا لأم سليم وأهل بيتها، فقالت: يا رسول الله! إن لي خويصة. قال: وما

هي؟ قالت: خادمك أنس فما ترك خير آخرة ولا دنيا إلا دعا لي به، ثم قال: اللهم ارزقه مالاً وولدًا وبارك له فيه. قال فإني لمن أكثر الأنصار مالاً. وحدثتني أمينة ابنتي أنه دفن من صلبي إلى مقدم الحجاج البصرة تسعة وعشرون ومائة.

وظل أنس ــ رضي الله تعالى عنه ــ ينتقل بين الأمصار يعلم الناس الحديث ويقدم لهم نموذجًا من هدي الرسول ﷺ في السلوك والعمل وفي إتقان الصلاة، يأمر وينهى وينصح وينتقد، وكان فيمن يؤلب على الحجاج فوسم في يده. قال الأعمش: كتب أنس إلى عبد الملك: قد خدمت رسول الله ﷺ تسع سنين وإن الحجاج يعرض بي حوكة البصرة. فقال: يا غلام اكتب إلى الحجاج: ويلك قد خشيت أن لا يصلح على يدي أحد فإذا جاءك كتابي فقم إلى أنس حتى تعتذر إليه. توفي ـ رضي الله تعالى عنه ـ سنة ثلاث وتسعين، فيكون عمره على هذا مائة وثلاث سنين.

مسنده ألفان ومائتان وستة وثمانون. اتفق له البخاري ومسلم على مائة وثمانين حديثًا، وانفرد البخاري بثمانين حديثًا، ومسلم بتسعين[1].

المعاني اللغوية والبلاغية:

حلاوة الإيمان: حلا الشيء يحلو، وهو نقيض المرارة، وحليت الشيء جعلته حلوًا، ومعنى الحلاوة في الحديث الاستلذاذ بالائتمار بأوامر الله، وتحمل المشاق في سبيل الطاعات.

الإيمان: وهو ما وقر في القلب وصدّقه العمل.

أنقذ: الإنقاذ: التخليص من ورطة أو أزمة، قال تعالى ﴿**وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها**﴾

(١) راجع سير أعلام النبلاء، من ص٣٩٥ـ٤٠٦، وكتاب الإصابة في تمييز الصحابة، م١، ص٧١، ٧٢.

يُقذف: القذف بالحجارة ـ الرمي بها، وقذف المحصنة قذفًا، إذا رماها بالكلام، والمقصود هنا الرمي بالنار والطرح فيها.

- من وجوه البلاغة:

وجد بهن حلاوة الإيمان: استعارة مكنية تمثيلية ـ المشبه: إيمان، والمشبه به: عسل أو نحوه، والجهة الجامعة وهو وجه الشبه الذي بينهما هو الالتذاذ وميل القلب إليه، فهذه هي الاستعارة بالكناية. ثم لما ذكر المشبّه أضاف إليه ما هو من خواص المشبه به ولوازمه، وهو الحلاوة على سبيل التخيل وهو استعارة تخييلية، وترشيح للاستعارة.

قال ابن أبي جمرة: إنما عبّر عليه الصلاة والسلام بالحلاوة لأن الله عز وجل قد شبه الإيمان بالشجرة في كتابه، حيث قال: ﴿**مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها**﴾، والكلمة الطيبة هي كلمة الإخلاص وهي رأس الدين وبها قوامه، وكلمة الإخلاص في الإيمان كأصل الشجرة لا بد منه أولاً، وحلاوة الثمرة هو حلاوة الإيمان[1].

وفي قوله ﷺ «وأن يكره أن يعود في الكفر. . . كما يكره أن يقذف في النار» تشبيه حيث شبه كره المؤمن للعودة في الكفر بكرهه للقذف في النار بجامع الكفر في كل.

- المعنى العام:

يقول الإمام النووي ــ رحمه الله ــ هذا حديث عظيم، أصل من أصول الإسلام، قال العلماء ـ رحمهم الله ـ معنى حلاوة الإيمان: استلذاذ الطاعات وتحمل المشقات في رضا الله عز وجل ورسوله ﷺ، وإيثار ذلك على عرض الدنيا، ومحبة العبد ربه سبحانه وتعالى بفعل طاعته وترك مخالفته، وكذلك محبة

(١) قطوف من رياض السنة، دكتور صالح أحمد رضا ـ القسم الأول ص١٤٨.

الرسول ﷺ[1]. ومن علامات حلاوة الإيمان أن يعتقد المؤمن من قرارة وجدانه أن الآجال بيد الله وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه، وأن الأمة لو اجتمعت على أن يضروه بشيء لم ينفعوه إلا بشيء قد كتبه الله له، وإن اجتمعت على أن يضروه بشيء لم يضروه إلا بشيء قد كتبه الله عليه ﴿**قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون**﴾[2] ومعنى حلاوة الإيمان أن يتحرر المؤمن من الخوف والجبن والجزع، ويتحلى بالصبر والشجاعة والإقدام. قال القاضي عياض رحمه الله: أن لا تصح المحبة لله ورسوله ﷺ إلا لمن قوي بالإيمان يقينه، واطمأنت به نفسه، وانشرح له صدره، وخالط لحمه ودمه، وهذا هو الذي وجد حلاوته. قال: والحب في الله من ثمرات حب الله. قال بعضهم: المحبة مواطأة القلب على ما يرضي الرب سبحانه فيحب ما أحب ويكره ما كره[3]. ومن علامات حلاوة الإيمان أن يعتقد المؤمن من سويداء قلبه أن الأرزاق بيد الله وأن ما بسطه الله على عبد لم يكن لأحد أن يمنعه وأن نفسًا لن تموت حتى تستوفي رزقها وأجلها. ومن مظاهر حلاوة الإيمان أن يتحرر المؤمن من الحرص الزائد على الدنيا والإلحاح بالطلب، ويتحرر أيضًا من الشح النفسي والإمساك والتقتير، ويتحلى بمعاني الكرم والإيثار والعطاء، بل يرى السعادة في القناعة وعيش الكفاف.

وبالجملة فللإيمان لذة في القلب تشبه الحلاوة الحسية، بل ربما يغلب عليها حتى يدفع بها أشد المرارات وهذا مما يعلم به من شرح الله صدره للإسلام[4].

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ج٢ ص١٣ (باب بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان).
(٢) التوبة: آية ٥١.
(٣) المرجع نفسه.
(٤) سنن النسائي، ج٨، طعم الإيمان، ص٩٥، شرح السيوطي.

ومن حلاوة الإيمان أن يتحرر المؤمن من رقبة الهوى ونزعات النفس الأمارة، وفتنة المال والنساء، ويتحلى بالمراقبة لله والإخلاص له والاستعانة به والتسليم لجنابه، ويندفع بكليته إلى العمل بكل أمانة وجدية وإتقان.

وحلاوة الإيمان تتطلب أن يقطع المؤمن هذه المراحل ـــ مراحل الحلاوة ـ بالطريقة الآتية: أولاً ـ المحبة الخالصة لله وللرسول بأن يعطي محبته وولاءه لله جل جلاله، ولأن الله سبحانه يستحق هذه المحبة وهذا الولاء لكونه الخالق الأوحد، ولما أسبغ على الإنسان من نعم ظاهرة وباطنة، ولأنه سخر الكون لمصلحة الإنسان، ويستحق هذه المحبة وهذا الولاء لافتقار العبد إليه واعتماده في كل الأحوال عليه ﴿**أمّن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أإله مع الله قليلا ما تذكرون * أمن يهديكم في ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشرًا بين يدي رحمته أإله مع الله تعالى الله عما يشركون * أمن يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض أإله مع الله قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين**﴾[1].

فإذا لم يكن المؤمن على هذا المستوى اللائق من المحبة لله والولاء له والافتقار إليه والتوكل عليه والاستعانة به والشكران لأنعمه وفضائله فيكون كاذبًا في دعوى المحبة لم يذق حلاوة الإيمان.

ثانيًا: «أن يكون الله ورسوله أحب إليه». قيل هو الحب الاختياري لا الطبعي، ومرجعه إلى أن يختار طاعتهما على هوى النفس وغيرها. «وأن يحب» أي غير الله (في الله) أي لأجله لا لأجل هواه، وأن يبغض كل ما يبغضه في الله، أي لأجله، وهما جميعًا خصلة واحدة للزوم بينهما عادة. وحاصل هذا أن يكون الله تعالى عنده هو المحبوب بالكلية، وأن تكون النفس مفقودة في جنب الله فلا

(١) النمل: آية ٦٢ ـ ٦٤.

تـرى أصـلاً إلا لله من حيث كـونها عبـدًا لـه تعـالى، وعنـد ذلك تصير النفس متعلقة بالله، وحينئذ يظهر فيه آثار قـوله عليه الصلاة والسلام «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»(١).

ثالثا: ثم بعد ذلك يعطي محبته وولاءه للنبي ﷺ؛ لكونه يستحق هذه المحبة وهـذا الـولاء؛ لكـونـه الأسـوة الحسنـة لمن يتطلع إلى المعـالي ويستشرف الجلال والكمال. والـرسول يستحق هـذه المحبة وهـذا الـولاء لكونـه أدى الأمانـة وبلغ الرسالة ونصح الأمة.

ولأن الله تعالى طلب منا هذه المحبة النبوية ﴿**قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله**﴾(٢).

فمن البديهي أن يستشعـر المؤمن من أعماق وجدانـه هذه المعاني نحـو رسول الإسلام ﷺ، لا بد أن يعطيه طاعته التامة وانقياده الكامل ومحبته الخالصة.

فإذا لم يكن المؤمن على هذا المستوى اللائق من المحبة والطاعة يكون كاذبًا في دعوى المحبة ولما يتذوق حلاوة الإيمان.

وهناك أمثلة كثيرة في قصص الصحـابة تتجلى فيها محبتهم الشديـدة للرسول ﷺ. روى البيهقي عن عروة قال: لما أخرج المشركون (زيد بن الدثنة) من الحرم ليقتلـوه بالتنعيم وقـد اجتمع في الطريق (خبيب بن عـدي الأنصاري وزيـد بن الدثنـة) فتواصيـا بالصبر والثبـات على ما يلحقهما من المكاره، قال أبو سفيان ـ وهو يومئـذ مشرك ـ قال لزيد بـن الدثنة: أنشدك بالله يـا زيد، أتحب أن محمدًا الآن عندنـا مكانك تضرب عنقـه وأنك في أهلك؟ فقال زيـد: والله ما أحب أن محمدًا الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة وأنّي جالس في أهلي!

(١) سنن النسائي: شرح السيوطي ج٨، حلاوة الإيمان، ص٩٦.
(٢) آل عمران: آية ٣١.

فقال أبو سفيان: ما رأيت أحدًا من الناس يحب أحدًا كحب أصحاب محمد محمدًا.

وقصة نسيبة بنت كعب الأنصاري قد قتل أخوها وأبوها وزوجها شهداء يوم أحد، فقالت لما أخبرت بذلك: ما فعل رسول الله ﷺ؟ (تسأل عن سلامته) قالوا: خيرًا هو بحمد الله كما تحبين. فقالت أرونيه حتى أنظر إليه. فلما رأته قالت: كل مصيبة بعدك جلل، أي كل مصيبة بعد سلامتك هينة[1].

هذه نماذج تطبيقية لمعنى «أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما». ومعنى ذلك أن من يحب الله سبحانه ويحب رسوله ﷺ محبة قلبية خالصة من واجبه أن يستجيب لندائهما، ويمتثل أمرهما، ويقف عند حدودهما، وإلا فإنه يكون كاذبًا في دعوى المحبة، ناقضًا عرى الإيمان.

تعصي الإله وأنت تظهر حبه هذا لعمري في القياس بديع

لو كان حبك صادقًا لأطعته إن المحب لمن يحب مطيع

قوله «وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله» قال يحيى بن معاذ: حقيقة الحب في الله أن لا يزيد بالبر ولا ينقص بالجفاء[2]. والحديث يعمق معاني الأخوة في الإسلام، وهي لا تكون خالصة ولا متماسكة ولا متعاونة إلا حين تكون لله وفي مرضاة الله، وبعد أن تذوق المؤمن حلاوة الإيمان. وهذا ما أكده صلوات الله وسلامه عليه في أكثر من حديث؛ فعن شعبة عن قتادة عن أنس ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»[3]. وظل ﷺ يعمق هذه المعاني الأخوية في مناسبات عديدة؛ فعن

---

(١) ؟؟؟؟؟

(٢) فتح الباري، كتاب الإيمان، (باب حلاوة الإيمان)، م١، ص٦٢.

(٣) المصدر نفسه (باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه).

عبد الله بن عمرو ــ رضي الله عنه ــ عن النبي ﷺ قال: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه»[1].

والأخوة الإسلامية الحقة لا تتذوق حلاوة الإيمان إلا إذا كانت ملازمة للتقوى؛ إذ لا أخوة بدون إيمان، ولا صداقة بدون تقوى. أما أنه لا أخوة بدون إيمان فلقوله تبارك وتعالى: ﴿**إنما المؤمنون إخوة**﴾[2]. وأما أنه لا صداقة بدون تقوى فلقوله سبحانه وتعالى: ﴿**الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين**﴾[3].

والنفس الإنسانية القائمة على الإيمان والممتزجة بالتقوى بمجرد أن تلتقي مع ما يماثلها ويجانسها إيمانًا وتقوى فإنها تشعر بالقرب والمحبة وتحس بالأنس والصفا في أول لحظات اللقاء والتعارف؛ «الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف». ولأن النفس المنطوية على الخبث والمتأصلة على الفساد لا يمكنها أن تتوافق مع النفس المؤمنة لكونهما متباينتين أصلاً، متناكرتين روحًا، متنافرتين منهجًا. ومن آداب هذه الأخوة الصافية أنه إذا أحب الأخ أخاه فليخبره أنه يحبه؛ وذلك لما روى أبو داود والترمذي عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا أحب الرجل أخاه فليخبره أنه يحبه».

والحرارة في اللقاء والابتسامة في الوجه تضفي على هذه الأخوة جمالاً ورونقًا؛ «تبسمك في وجه أخيك صدقة».

---

(١) المصدر نفسه (باب المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده).

(٢) سورة الحجرات: آية ١٠.

(٣) الزخرف: آية ٦٧.

«وأن يكره أن يعـود في الكفر كما يكـره أن يقذف في النـار» جاءت هـذه الفقرة بعـد ذكر مفـاهيم الأخوة في الله وبعـد شرح مفاهيم حـلاوة الإيمان؛ لأن الإيمان بالله عز وجل حين يترسخ في النفـوس ويخالط بشاشته القلوب فإن صـاحبه ينفر من كل كفر، ويكـره كل باطل، ويبتعـد عن كل ضلال، بل تكـون عند المؤمن من الحساسيـة البالغة والشعـور العميق ما يستطيع أن يميـز بين الحق والباطل، وبين الإيمان والكفـر، وبين ألـوان الكفـر المعـاصرة من العلمانيـة والقـوميـة؛ والإنسـانيـة والاشتراكية. وبين مفـاهيم الكفـر البـواح من الـوثنية والشيـوعيـة والإلحاد؛ لأن للردة في عصرنـا اليوم أساليب متنوعـة وألوانا متباينـة قد تخفى على بعض البسطاء حقائقها. فمن مظاهر الارتداد اليوم أن يرفع المسلم:

● شعار القوميـة، جاعلا إياه هدفـا وغاية يدعو لـه، ويعمل من أجله هذا الشعـار رفعه اليهـود في بلاد الإسـلام إبـان إلغاء الخلافـة الإسلاميـة. من أجل ماذا؟ من أجل أن تتصارع القـوميات من تركية وعربية وكـردية بعضها ببعض، من أجل فصل الإسلام عن الـدولة وإبعاد الشريعة الإسلاميـة عن واقع الحياة؛ من أجل أن يتعصب القومي لقوميته وينبذ أهل دينه وعقيدته.

● شعـار الاشتراكيـة، وهـو أن يرفـع المسلم شعـار (الاشتراكية) يـدعـو لـه ويجاهـد في سبيلـه اعتقادًا منـه أنـه المبـدأ الوحيـد الـذي يـرفع كرامـة العـامل وأصحـاب الـدخل المحدود ويستأصل مـن المجتمع جذور الثـالـوث المخيف الفقـر والمرض والجهل، دون أن يخطـر ببـالـه أن الإسـلام جـاء بنظـام تكـافلي اجتماعي عظيم يحقق للفقـراء حـاجتهم ﴿**وفي أمـوالهم حق معلـوم * للسـائل والمحروم**﴾.

● ومن مظاهر الارتداد إعطاء حق الحاكمية والتشريع لغير الله .

فكل من اعتقد أو رضي بحاكمية غير حاكمية الله عز وجل كان مرتدًّا كافرًا ﴿**فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليماً**﴾ .

● ومن مظاهر الارتداد الاستهزاء بشيء من القرآن الكريم والسنة المطهرة أو شعيرة من شعائر الإسلام كاستهزاء (سلمان رشدي) بمعالم السنة الكريمة في كتابه «آيات شيطانية» .

● ومن مظاهر الارتداد موالاة الكافرين والمنافقين والملحدين وابتغاء العزة عندهم، قال تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين**﴾ .

● ومن مظاهر الارتداد وصف الله سبحانه وتعالى بأوصاف لا تليق به جل جلاله فالذي يقول: (إن الله يحل بالأجسام) هو كافر وضال، أو يقول: (إن الله ثالث ثلاثة)، أو يقول (إن الله فقير ونحن أغنياء) .

فالله سبحانه لا يشابهه شيء لا في ذاته ولا في صفاته، فهو المتنزه عن الزمان والمكان والحلولية والجسمية وهو المتفرد بالجلال والكمال والوحدانية والربوبية، ﴿**لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير**﴾[1]، ﴿**ليس كمثله شيء وهو السميع البصير**﴾[2]، ﴿**لم يلد ولم يولد * ولم يكن له كفوا أحد**﴾[3] .

---

(١) الأنعام: آية ١٠٣ .

(٢) الشورى: آية ١١ .

(٣) الإخلاص: آية ٢ .

● ومن مظاهر الارتداد الإيمان ببعض الإسلام والكفر ببعضه الآخر، كأن يقول قائل: أنا أؤمن بالإسلام على أنه دين عبادة وأخلاق، ولكن أكفر به على أنه نظام حكم ومنهج حياة. فهذا التصور عن الإسلام يوقع المرء بالردة ويدخله في الكفر لقوله تبارك وتعالى في سورة البقرة: ﴿**أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب**﴾[1]. إلى غير ذلك من هذه الاعتقادات الباطلة، والأفكار الضالة التي توقع أصحابها في الردة وتخرجهم عن ملة الإسلام[2].

- ما يستفاد بالحديث:

● في الحديث استخدم النبي ﷺ كلمة: «أحب» ليبين للمؤمن أن الحب وحده لا يكفي لتحقيق هذه الخصلة، بل لا بد من تفضيل هذا الحب على غيره من صنوف الحب الأخرى. مثل حب النفس وحب الولد، وحب الزوجة وحب المال وحب الشهرة... إلى آخر ذلك.

فعلى المؤمن الذي يرغب في تحقيق هذه الخصلة له أن يقدم حب الله ورسوله على سائر ألوان الحب وصنوفه.

● وللإيمان لذة تشبه في القلب الحلاوة الحسية، بل تغلب عليها، ويشعر بذلك من شرح الله صدره للإسلام فتحلىٰ بالفضائل، والتزم بالأوامر ونادى بها، وتخلىٰ عن الرذائل التي نهى عنها الدين وابتعد عنها ونذّد بها. فعلى المؤمن أن يعطي الولاء لله عزّ وجل، ويحبه ويقدم حبه على سائر ألوان الحب؛ لأنه سبحانه وتعالىٰ سخر الكون لخدمته وأسبغ على الإنسان النعم الظاهرة

---

(١) البقرة: من الآية ٨٥.

(٢) راجع كتيب «حين يجد المؤمن حلاوة الإيمان»، د. عبد الله ناصح علوان.

والباطنة، ولذلك يجب الامتثال لأمره، والـوقوف عند حدوده، وإلا يكون كاذبًا في دعوى المحبة، ناقصًا عرى الإيمان.

● ثم بعد ذلك يعطي محبته وولاءه للنبي ﷺ؛ لكونـه الأسوة الحسنة، ولكونه أدّى الأمانة وبلّغ الرسالة ونصح الأمة وأرسله الله تعالى رحمة للناس.

فإن لم يكن المؤمن على هذا المستـوى اللائق من المحبة لله عز وجلّ والـولاء له والمحبة للرسول ﷺ لم يذق حلاوة الإيمان، ولم يستمتع بطعمها. وما أحوجنا أن نتـدارس قصص الصحابـة وسير حيـاتهم؛ فإنهم حقًّـا كانـوا يحبـونه ﷺ حبًّـا شديـدًا، ويفضلونه على أنفسهم، ويضحون بكل شيء في سبيلـه؛ لأنهم ذاقوا حلاوة الإيمان واستمتعوا بها.

- فقه الحديث:

على المؤمن أن يسعى لتذوق حلاوة الإيمان من باب الندب والاستحباب.

الحديث الخامس: طعم الإيمان

حدثنا محمد بن يحيى بن أبي عمر المكي وبشر بن الحكم قالا: حدثنا عبدالعزيز - وهو ابن محمد الدَّراوَرْدِيُّ - عن يزيد بن الهادِ عن محمد بن إبراهيم عن عامر بن سعد عن العباس بن عبد المطلب أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمد رسولاً**».

- تخريج الحديث:

- صحيح مسلم بشرح النووي، ج٢، ص٢ (باب ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًّا).

- تحفة الأحوذي، م٧، ص٣٧٢، كتاب الإيمان (باب ذاق طعم الإيمان).

- مسند الإمام أحمد م١ ص٢٠٨. وفي رواية الترمذي ومسند أحمد: «نبيا» بدلا من «رسولا».

- مرتبة الحديث:

هذا حديث حسن صحيح. ومعناه: (أ) أن للحديث إسنادًا فأكثر، فالمعنى (حسن باعتبار إسناده، صحيح باعتبار إسناد آخر).

(ب) وإن كان له إسناد واحد فالمعنى حسن عند قوم، صحيح عند قوم آخرين.

- الراوي:

العباس بن عبد المطلب، عم رسول الله ﷺ. قيل: إنه أسلم قبل الهجرة وكتم إسلامه وخرج مع قومه إلى بدر فأسر يومئذ فادعى أنه مسلم فالله أعلم. وله عدة أحاديث منها خمسة وثلاثون في مسند بقي، وفي البخاري ومسلم حديث واحد، وفي البخاري حديث واحد، وفي مسلم ثلاثة أحاديث. وكان

العباس ـ رضي الله تعالى عنه ـ قد ولد قبل عام الفيل بثلاث سنين، وكان من أطول الرجال وأحسنهم صورة، وأجهرهم صوتًا مع الحلم الوافر والسؤدد.

روى مغيرة عن أبي رزين قال: قيل للعباس أنت أكبر أو النبي ﷺ؟ قال: هو أكبر وأنا ولدت قبله.

وكان يمنع الجار ويبذل المال ويعطي في النوائب، ونديمه أبو سفيان بن حرب.

عن ابن عباس قال: «أَسَر العباس أبو اليسر فقال النبي ﷺ: كيف أسرته؟ قال: لقد أعانني عليه رجل ما رأيته قبل ولا بعد، هيئته كذا. قال: لقد أعانك عليه ملك كريم».

موقف الرسول ﷺ من القرابة والرحم والعم:

قال النبي ﷺ للعباس: «افدِ نفسك وابن أخيك عقيلاً ونوفل بن حارث وحليفك عتبة بن جحدم فأبى، وقال: إني كنت مسلمًا قبل ذلك، وإنما استكرهوني. قال: الله أعلم بشأنك إن يك ما تدعيه حقًّا فالله يجزيك بذلك. وأما ظاهر أمرك فقد كان علينا، فافد نفسك».

موقف نبوي كريم مليء بالعدالة والإنصاف وبالحنان وبمعانٍ تطبيقية لصلة الرحم، وكان رسول الله ﷺ قد عرف أن العباس أخذ معه عشرين أوقية ذهبًا، فقال: يا رسول الله احسبها لي من فدائي. قال: لا. ذاك شيء أعطانا الله منك. قال: فإنه ليس لي مال: قال: فأين المال الذي وضعته بمكة عند أم الفضل وليس معكما أحد غيركما فقلت: إن أصبت في سفري فللفضل كذا لقثم كذا ولعبد الله كذا؟

قال : فوالـذي بعثك بالحق ما علم بهذا أحد من النـاس غيرها ، وإني لأعلم أنك رسول الله .

قـال : فأعطاني الله مكـان العشرين أوقيـة في الإسلام عشرين عبـدًا كلهم في يده مال يضرب به مع ما أرجو من مغفرة الله تعالى .

موقف نبوي رقيق نحو صلة الرحم :

عن ابن عبـاس قـال : «أمسى رسـول الله ﷺ والأسـارى في الوثـائق فبـات ساهرًا أول الليل ، فقيل : يا رسـول الله ما لك لا تنام؟ قال : سمعت أنين عمي في وثاقـه فأطلقوه ، فسكت ، فنام رسول الله ﷺ» . عن المطلب بن ربيعـة قال : قال رسـول الله ﷺ : « ما بال رجـال يؤذونني في العباس؟ وإن عم الـرجل صنو أبيـه . من آذى العبـاس فقـد آذاني» . وثبت أن العبـاس كـان يـوم حنين وقت الهزيمة آخذًا بلجام بغلة النبي ﷺ وثبت معه حتى نزل النصر.

مناقب العباس رضي الله عنه :

قال النبي ﷺ : هـذا العباس عم نبيكم أجـود قريش كفًّا وأوصلها» . وعن ابن عمر قال : استسقى عمـر عام الرمادة بالعبـاس فقال : اللهم هذا عم نبيك نتوجه إليك به فاسقنا ، فما برحوا حتى سقاهم الله . فخطب عمر الناس فقال : إن رسول الله ﷺ كان يـرى للعباس ما يرى الـولد لوالده فيعظمـه ويفخمه ويبر قسمه فـاقتدوا أيها الناس بـرسول الله ﷺ في عمه العبـاس واتخذوه وسيلة إلى الله فيما نزل بكم .

وقـد عاش ــ رضي الله تعـالى عنه ــ ثمانية وثمانين عـامًـا ومات سنـة اثنتين وثلاثين فصلى عليه عثمان ودفن بالبقيع[1] .

---

(١) سير أعلام النبلاء ج٢ ص٧٨ ـ ١٠٣ .

- المعاني اللغوية :

ذاقه ذوقًا وذواقًا ومذاقًا ومذاقةً اختبر طعمه .

طَعْم الشيء : حلاوته ومرارته وما بينهما ، يكون في الطعام والشراب .

الرب ، باللام : لا يطلق لغير الله عز وجل ، وقد يخفف ، ورب كل شيء : مالكه ومستحقُّه أو صاحبه . (ويقولون : قد رب فلان قومه) أي ساسهم وجعلهم ينقادون له ، (ربيت القوم) أي حكمتهم وسدتهم .

وبإمعان النظر في هذه الكلمة يتبين أن كلمة (الرب) مشتملة على :

- المربى الكفيل بقضاء الحاجات .
- الكفيل والرقيب والمتكفل بالتعهد وإصلاح الحال .
- السيد الرئيس الذي يكون في قومه كالقطب يجتمعون حوله .
- السيد المطاع .
- الملك والسيد .

واستعمال كلمة (رب) في القرآن جاءت بجميع ما ذكر. ووردت (ربًّا) بالنصب على التمييز وكذلك دينًا ونبيًّا .

ومعنى رضيت بالشيء : قنعت به ، واكتفيت به ولم أطلب معه غيره .

- المعنى العام:

يتذوق طعم الإيمان من رضي بالله ربًّا بمعنى المربي والكفيل بقضاء الحاجات ، قال تعالى ﴿**فإنهم عدو لي إلا رب العالمين * الذي خلقني فهو يهدين * والذي هو يطعمني ويسقين * وإذا مرضت فهو يشفين * والذي**

يميتني ثم يحيين﴾[1] وفي هـذا المعنى **﴿قل أغير الله أبغي ربـا وهـو رب كل شيء﴾**[2] وبمعنى السيد الرئيس **﴿هـو ربكم وإليـه تـرجعـون﴾**[3]، **﴿ثم إلى ربكم مرجعكم﴾**[4].

وبعد قراءة هـذه الآيات يتبين للقارئ أن القرآن يجعل (الربـوبية) مترادفة مع الحاكمية والملكيـة، ويصف لنا (الرب) بأنـه الحاكم المطلق لهذا الكون ومـالكه وآمره الوحيد لا شريك له، وبهذا الاعتبار هو ربنا ورب العالمين، وبهذا الاعتبار هو كفيلنا وحـافظنا[5]. ومن تشبع بروح الحديث بهذه الصورة المتكـاملة تذوق طعم الإيمان، وهـذا معنى قولـه ﷺ: «من رضي بالله ربًّـا» فمعنى الحديث: لم يطلب غير الله تعـالى، ولم يسع في غير طريق الإسـلام، ولم يسلك إلا ما يـوافق شريعـة محمد ﷺ. ولا شك في أن من كـانت هذه صفتـه فقد خلصت حـلاوة الإيمان إلى قلبه وذاق طعمه[6].

وهذا الجزء من الحديث «من رضي بـالله ربا»، والآيات التي أشرنا إليهـا أيضًا تقتضي توحيد الألـوهية، ونعني بذلك إفراد الله سبحانه بخصـائص الألوهية في الاعتقاد والتصور، وفي السرّ والعلانية على السـواء، فمعنى رضي بالله ربا هو أن يعتقد أن لا إلـه إلا الله وأن لا معبود إلا الله، وأن لا خـالق إلا الله، وأن لا رازق إلا الله، وأن لا متصرف في شأن الكون كلـه إلا الله، فيتوجه لله وحده بـالشعائر التعبـدية، ويتـوجّه لله وحـده بـالطلب والرجـاء، ويتـوجّه لله وحـده بالخشيـة والتقوى.

---

(١) الشعراء: ٧٧ ـ ٨١.
(٢) الأنعام: ١٦٤.
(٣) هود: ٣٤.
(٤) الزمر: ٧.
(٥) المصطلحات الأربعة في القرآن للمودودي، مصطلح (الرب).
(٦) صحيح مسلم بشرح النووي، ج٢ (باب ذاق طعم الإيمان)ص٢.

والقرآن الكريم يربط بين عقيدة التوحيد وبين مقتضياتها في الضمير وفي الحياة ربطًا وثيقًا ويرتب على وحدانية الألوهية ووحدانية الفاعلية والسلطان في هذا الوجود كل ما يكلفه المسلم من التكاليف الشرعية، ثم يذكر آثار التوحيد في الكون وفي الحياة الدنيا والآخرة، ويكرر معها الأمر باتباع شريعة الله باعتباره مقتضى توحيد الألوهية ﴿**وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم * إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون * ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادًا يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبًّا لله ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعًا وأن الله شديد العذاب**﴾[1].

وبالتأمل في هذه الآيات نجد أنه تعالى بدأ بتقرير وحدانية الله ووحدة الألوهية، ثم أتبع هذا التقرير بعرض المشاهد الكونية التي تتجلى فيها القدرة الإلهية، ثم أعقبها بعرض مشاهد القيامة التي يتجلى فيها السلطان، لا سلطان غيره. وفي سياق هذه الآيات ندد بمن يتلقون في هذا الشأن عن عرف الجاهلية، ثم أمر الذين آمنوا أن يأكلوا من الطيبات التي شرع الله حلها ﴿**إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم**﴾[2].

ومثل هذا السياق القرآني المتماسك المتشابك يرد كثيرًا في القرآن للدلالة على معنى التوحيد.

---

(١) سورة البقرة: ١٦٣ ـ ١٦٥.

(٢) سورة البقرة: ١٧٣.

وقد قسم العلماء التوحيدَ إلى ثلاثة أقسام :

١ - توحيد الربوبية .

٢ - توحيد الألوهية .

٣ - توحيد الأسماء والصفات .

وحتى يتذوق المؤمن طعم الإيمان لا بد أن يتمعن في مفاهيم التوحيد الثلاثة ، وقد جمع الله هذه الأقسام في قوله ﴿**رب السموات والأرض وما بينهما فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سميا**﴾[١] . فأما توحيد الربوبية فهو إفراد الله تعالى بالخلق والتدبير. ومن أدلته قوله تعالى ﴿**ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين**﴾[٢] . وقوله ﴿**ولله ملك السموات والأرض والله على كل شيء قدير**﴾[٣] . وتوحيد الربوبية كالإقرار بأنه خالق كل شيء وأنه ليس للعالم صانعان متكافئان في الصفات والأفعال . وهذا التوحيد حق لا ريب فيه ، وهو الغاية عند كثير من أهل النظر والكلام وطائفة من الصوفية . وهذا التوحيد لم يذهب إلى نقيضه طائفة معروفة من بني آدم ، بل القلوب مفطورة على الإقرار به أعظم من كونها مفطورة على الإقرار بغيره من الموجودات ، كما قالت الرسل فيما حكى الله عنهم ﴿**قالت رسلهم أفي الله شك فاطر السموات والأرض**﴾[٤] وأشهر من عُرف تجاهله وتظاهره بإنكار الصانع فرعون ، كما قال له موسى : ﴿**لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر**﴾[٥] . ولهذا لما قال : ﴿**وما رب العالمين**﴾ على وجه الإنكار تجاهل العارف قال له موسى :

---

(١) سورة مريم : ٦٥ .

(٢) سورة الأعراف : ٥٤ .

(٣) سورة آل عمران : ١٨٩ .

(٤) سورة إبراهيم : ١٠ .

(٥) سورة الإسراء : ١٠٢ .

﴿قال رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين * قال لمن حوله ألا تستمعون * قال ربكم ورب آبائكم الأولين * قال إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون * قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون[1]﴾[2].

«ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربا» يعني اعتقد أن الله هو الرب المتفرد بالخلق والرزق والتدبير الذي ربي جميع الخلق بالنعم وربي خواص خلقه وهم الأنبياء وأتباعهم بالعقائد الصحيحة والأخلاق الجميلة والعلوم النافعة والأعمال الصالحة.

وأما توحيد الألوهية فهو إفراد الله تعالى بالعبادة بأن يعبد وحده ولا يعبد غيره من ملك أو نبي أو ولي أو شجر أو حجر أو قمر أو غير ذلك كائنًا من كان، ومن أدلته قوله تعالى ﴿واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا﴾[3] وقوله ﴿**وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون**﴾[4].

وتوحيد الإلهية المتضمن توحيد الربوبية وهو عبادة الله وحده لا شريك له، فإن المشركين من العرب كانوا يقرون بتوحيد الربوبية وأن خالق السموات والأرض واحد كما أخبر الله عنهم بقوله: ﴿**ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله**﴾[5]. ﴿**قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون * سيقولون لله قل أفلا تذكرون**﴾[6]. ومثل هذا كثير في القرآن. ولم يكونوا يعتقدون في الأصنام أنها مشاركة لله في خلق العالم. فعلم أن التوحيد المطلوب

---

(١) سورة الشعراء: ٢٣ ـ ٢٨.

(٢) شرح العقيدة الطحاوية للعلامة ابن أبي العز الحنفي، حققها وراجعها جماعة من العلماء وخرج أحاديثها محمد ناصر الدين الألباني.

(٣) النساء: ٣٦.

(٤) الأنبياء: ٢٥.

(٥) لقمان: ٢٥.

(٦) المؤمنون: ٨٤، ٨٥.

هو توحيد الألـوهية الذي يتضمن توحيد الربـوبية؛ قال تعالى: ﴿**فأقم وجهك للـدين حنيفًا فطـرة الله التي فطر النـاس عليهـا لا تبديل لخلق الله ذلك الـدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون**[1]﴾[2].

ذاق طعم الإيمان من اعترف بأن الله ذو الألوهية والعبـودية على خلقه أجمعين وأفرده وحده بالعبادة كلها وإخلاص الدين لله وحده.

وأما تـوحيد الأسماء والصفـات فهو إفـراد الله تعالى بأسمائه وصفـاته، وذلك بإثبات ما أثبته الله لنفسه مـن الأسماء والصفات، أو على لسان رسوله ﷺ، من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل.

فلا يجوز نفي شيء ممـا سمى الله به نفسه، أو وصف بـه نفسه؛ لقولـه تعالى ﴿**ولله الأسماء الحسنى فـادعوه بها وذروا الـذين يلحـدون في أسمائه سيجزون مـا كانوا يعملون**﴾[3]. ولأن ذلك تعطيل يستلزم تحريف النصوص أو تكذيبها مع وصف الله تعالى بالنقائص والعيوب.

ولا يجوز إثبات اسم أو صفـة لله تعالى مع التمثيل لقولـه تعالى ﴿**ليس كمثله شـيء وهـو السميع البصير**﴾[4]. وقولـه ﴿**فـلا تضربوا لله الأمثـال إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون**﴾[5]. ولأن ذلك إشراك بالله تعالى يستلزم تحريف النصوص أو تكذيبها مع تنقيص الله تعالى بتمثيله بالمخلوق الناقص.

ولا يجوز إثبـات اسم أو صفـة لله تعـالى مع التكييف لأن ذلك قـول على الله تعالى بلا علم)[6].

---

(١) الروم: ٣.
(٢) شرح العقيدة الطحاوية ص؟؟.
(٣) سورة الأعراف: ١٨٠.
(٤) سورة الشورى: ١١.
(٥) سورة النحل: ٧٤.
(٦) تقريب التدمرية للشيخ محمد بن صالح العثيمين ص١٣٣، ١٣٤ باختصار.

فمن نفى صفاتـه تعالى وعطلها ناقـض تعطيله توحيده، ومن شبهـه بخلقه ناقض تشبيهه توحيده.

ولم ينكر تـوحيد الربـوبية إلا شواذ مـن المجموعة البشريـة، كما ذكر الله عن فرعون أنه قال: ﴿**ما علمت لكم من إله غيري**﴾(١). وقد خاطبه موسى عليه السـلام بقــولـه: ﴿**لقـد علمـت مـا أنـزل هــؤلاء إلا رب السمـوات والأرض بصائر**﴾(٢). وكل هذا من بـاب المكابرة؛ قـال تعالى ﴿**وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا**﴾(٣).

ولما كان هذا الكون وما يجرى فيه مـن الحوادث شاهدًا على وحدانية الله تعالى وربوبيتـه؛ إذ المخلوق لا بد له من خـالق، والحوادث لا بد لها من محدث، كما قال تعـالى ﴿**أم خلقـوا من غير شــيء أم هم الخالقون * أم خلقـوا السمـوات والأرض**﴾(٤).

ولما كان لا بـد من جواب على هذه الحقيقـة اضطرب هؤلاء المنكرون لـوجود الخالق في أجوبتهم(٥). وبهت بعضهم فلم يحر جوابًا.

ومفـاهيم الربـوبيـة والألوهيـة تتضح بصـورة جميلة في الحوار الـذي دار بين إبراهيم عليه السلام والملك نمـرود، وذلك في قوله تعالى ﴿**ألم تر إلى الذي حاج إبراهيـم في ربه أن آتاه الله الملـك إذ قال إبراهيم ربي الـذي يحيي ويميت قـال أنا أحيي وأميت قـال إبراهيم فإن الله يـأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغـرب فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين**﴾(٦).

---

(١) سورة القصص: ٣٨.
(٢) سورة الإسراء: ١٠٢.
(٣) سورة النمل: ١٤.
(٤) سورة الطور: ٣٥، ٣٦.
(٥) راجع الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد والرد على أهل الشرك والإلحاد، د. صالح بن فوزان.
(٦) سورة البقرة: ٢٥٨.

فهذا الملك الـذي حاجَّ إبـراهيم في ربه لم يكن منكـرًا لوجـود الله أصلاً وإنما كان منكرًا لوحدانيته في الألوهية والربوبية ولتصريفه للكون. ولذلك يعجب الله من أمره ﴿**ألم تر إلى الذي حاج إبـراهيم في ربه أن آتاه الله الملك**﴾، ﴿**ألم تر**﴾ إنه تعبير الإنكار والاستنكـار؛ فالفعلة منكرة حقًّـا أن يأتي الحجاج والجدال بسبب النعمـة والعطاء وأن يـدعي عبد لنفسـه ما هـو من اختصاص الـرب، ومن ثم عرف إبراهيم عليه الصلاة والسلام الـرب بالصفة التي لا يمكن أن يشاركه أحد ﴿**ربي الذي يحيي ويميت**﴾ وتلك هي من أبـرز صفـات الرب المتفـردة التي لا يشاركه فيها أحد من خلقه ولكن الـذي حاج إبراهيم في ربه ظل يمارس ويداور في تلك الحقيقـة الثابتـة، حقيقة منهج الحيـاة وسلبها، عنـدئذ عدل عن هـذه السنة الكونيـة إلى سنة أخرى ظاهـرة، وقال: ﴿**إن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر**﴾. فالتحدي قائم والأمـر ظاهر ولا سبيل للجدال والمراء، وكـان التسليم أولى والإيمان أجدر، ولكن ﴿**والله لا يهدي القوم الظالمين**﴾.

جاء هـذا الجدال مثلاً للضلال والعناد وتجربـة يتزود بها أصحاب الـدعوة في مـواجهـة المنكـرين. «ذاق طعـم الإيمان من رضي... وبـالإسـلام دينًـا». والحديث يشير إلى الآية ﴿**ومن يبتغ غير الإسلام دينًا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين**﴾[1]. فدين الإسلام هـو ما شرعه الله سبحانـه وتعالى لعباده على ألسنة رسله، وأصل هـذا الدين وفروعه روايته عن الـرسل. والآية توضح أن من سلك طريقًا سوى ما شرعه الله فلن يقبل منه[2].

والقرآن يستعمل كلمـة الدين مصطلحًا جامعًـا يريد به نظـامًا للحياة؛ لأن الإسـلام منهج حيـاة بشريـة واقعيـة بكل مقـومـاتها، منهـج يشمل التصـور

---

(١) سورة آل عمران: ٨٥.

(٢) تفسير ابن كثير م١ ص٥٦٧.

الاعتقادي كما يحدد غاية وجود الإنسان، ويشمل النظم الاجتماعية والتنظيمات الواقعية التي تنبثق من ذلك التصور الاعتقادي، وتستند عليه وتجعل له صورة واقعية متمثلة في حياة البشر، كالنظام الأخلاقي والينبوع الذي ينبثق منه، والأسس التي يقوم عليها، والسلطة التي يستهدفها، والنظام السياسي وشكله وخصائصه، والنظام الاجتماعي وأسسه ومقوماته، والنظام الاقتصادي وفلسفته وتشكيلاته، والنظام الدولي وعلاقاته وارتباطاته.

ولن يكون الإسلام إذن هو النطق بالشهادتين دون أن يتبع شهادة أن لا إله إلا الله معناها وحقيقتها وهي توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية وتوحيد الاتجاه إلى الله تعالى. ولن يكون الإسلام شعائر وعبادات دون أن يتبع هذا كله آثاره العملية، ممثلة في منهج للحياة موصول بالله الذي تتوجه إليه القلوب بالعبادات والشعائر، وتستشعر النفوس تقواه، فتتهذب وترشد، فتذوق طعم الإيمان لأنه رضي بالإسلام دينا.

« ذاق طعم الإيمان من رضي . . . وبمحمد رسولاً » وهذا لا يتأتى حتى يستسلم المؤمن للرسول ﷺ وينقاد لأمره، ويتلقى خبره بالقبول والتصديق دون أن يعارضه بخيال باطل يسميه معقولاً.

ولا شك أن من لم يسلم للرسول نقص توحيده، فإنه يقول برأيه وهواه، ويقلد ذا رأي وهوى بغير هدى من الله، فينقص من توحيده بقدر خروجه عما جاء به الرسل(١).

ولا يصح إيمان عبد حتى يؤمن برسالته ويشهد بنبوته، ويتبع أوامره ﴿**ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا**﴾(٢). وهذا معنى قوله ﷺ: « ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمد رسولاً ».

(١) شرح العقيدة الطحاوية ص٢١٧، ٢٢٢.

(٢) سورة النساء: ٦٩.

ويحلل العلامة ابن القيم هذه الفكرة تحليلاً دقيقًا وشاملاً فيقول: الحديث يتضمن الرضا بربوبيته سبحانه وألوهيته، والرضا برسوله، والانقياد له، والرضا بدينه، والتسليم له، ومن اجتمعت له هذه الأربع: فهو الصديق حقًّا. وهي سهلة بالدعوى باللسان، وهي من أصعب الأمور عند الحقيقة والامتحان، ولا سيما إذا جاء ما يخالف هوى النفس ومرادها. من ذلك: تبين أن الرضا كان لسانه به ناطقًا، فهو على لسانه لا على حاله.

فالرضا بإلٰهيته يتضمن الرضا بمحبته وحده، وخوفه ورجائه، والإنابة إليه، والتبتل إليه، وانجذاب قوى الإرادة والحب كلها، فعل الراضي بمحبوبته كل الرضا، وذلك يتضمن عبادته والإخلاص له.

والرضا بربوبيته يتضمن الرضا بتدبيره لعبده، ويتضمن إفراده بالتوكل عليه والاستعانة به، والثقة به، والاعتماد عليه، وأن يكون راضيًا بكل ما يفعل به.

فالأوّل يتضمن رضاه بما يؤمر به، والثاني يتضمن رضاه بما يقدر عليه، وأما الرضا بنبيه رسولاً، فيتضمن كمال الانقياد له، والتسليم المطلق إليه، بحيث يكون أولىٰ به من نفسه، فلا يتلقى الهدى إلا من مواقع كلماته، ولا يحاكم إلا إليه، ولا يحكم عليه غيره ولا يرضى بحكم غيره البتة، لا في شيء من أسماء الرب وصفاته وأفعاله، ولا في شيء من حقائق الإيمان ومقاماته، ولا في شيء من أحكامه ظاهرة وباطنة، لا يرضى في ذلك بحكم غيره، ولا يرضى إلا بحكمه، فإن عجز كان تحكيمه غيره من باب غذاء المضطر إذا لم يجد ما يقيه. وأما الرضا بدينه: فإذا قال: أو حكم أو أمر أو نهى رضي كل الرضا ولم يبق في قلبه حرج من حكمه، وسلّم له تسليماً[1]. وبعد هذا كله إذا كان يكفي لإثبات الإسلام أن يتحاكم الناس إلى شريعة الله وحكم رسوله فإنه لا يكفي في الإيمان إن لم يصحبه الرضا النفسي والقبول القلبي، والاستسلام بالجنان في اطمئنان واتخاذه

(١) راجع مدارج السالكين، ج٢، فصل من منازل «إياك نعبد وإياك نستعين منزلة الرضا» من ص١٧١ إلى ١٧٥ بشيء من الاختصار والتصرف.

ﷺ أسوة في كل خطـوة من خطوات الحياة في القول والعمل والسلـوك، وإحياء سنته في مختلف مجالات الحياة لتنطبق عليـه مفاهيم: ذاق طعم الإيمان من رضي بمحمد رسولاً.

- ما يستفاد بالحديث:

● يقتضي الـرضا بـالله ربـا محبتـه سبحانـه وتعـالى والإخـلاص له في العبـادة والامتثال لأوامره واجتناب نواهيه. ومحبته من أطاعه، وبغضه من عصاه ومحبته ما أمر به، وبغضه ما نهى عنه.

● يتضمن الرضا بـالإسلام دينًا العمل به، والـدعوة إليه، والصبر على الأذى في سبيلـه، والقيام بأركـانـه وشرائعه الظـاهرة والبـاطنـة، القوليـة والاعتقاديـة والعمليـة في العبـادات والمعـامـلات، والأخـلاق، والآداب، وتحكيمـه في كل الأمور والتصرفات.

● يتضمن الرضا بمحمـد ﷺ نبيًّا التصديق بما جاء به وأخبر وطـاعته فيما أمر واجتناب ما نهى عنه.

● من أطـاع الله ورسـولـه وامتثل أمـره واجتنب نهيـه، وصـدق خبره وحكّم شرعه، وطبق تعاليم الإسـلام، أمرًا ونهيًا واعتقادًا ودعـوةً فهو الذي ذاق طعم الإيمان، ويغفـر الله له ذنبـه، وتكون لـه الجنـة وكان حقًّـا على الله أن يرضيـه. وذلك فضل الله يـؤتيـه مـن يشـاء والله ذو الفضل العظيم وصلى الله على عبـده ورسوله محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

- فقه الحديث:

● من ذاق طعم الإيمان بهذه المواصفات وجبت له الجنة بإذن الله تعالى.

(١) ليس من شرط «الـرضـا» ألا يحسّ بـالألم والمكـاره، بل ألا يعترض على الحكم ولا يتسخطـه، كرضـا المريض بشرب الدواء الكـريه، ورضـا الصائم في

اليوم الشديد الحر بما يناله من ألم الجوع والظمأ ورضا المجاهد بما يحصل له من ألم الجراح .

وسئل أبو عثمان عن قول النبي ﷺ : «أسألك الرضا بعد القضاء» فقال : لأن الرضا قبل القضاء عزم على الرضا ، والرضا بعد القضاء هو الرضا .

وكتب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى رضي الله عنهما : «أما بعد فإن الخير كله في الرضا ، فإن استطعت أن ترضى وإلا فاصبر» .

والرضا ثلاثة أقسام : رضا العوام بما قسمه الله وأعطاه ورضا الخواص بما قدره وقضاه ، ورضا خواص الخواص به بدلاً من كل سواه[1] .

(٢) الرضا به ربًّا فرض ، بل هو من أكبر الفروض باتفاق الأمة ، فمن لم يرض به ربًّا ، لم يصح له إسلام ولا عمل ولا حال .

وأما الرضا بقضائه فأكثر الناس على أنه مستحب وليس بواجب ، وقيل : بل هو واجب . وهما قولان في مذهب أحمد[2] .

---

(١) راجع مدارج السالكين لابن القيم ، ج٢ ، فصل «وليس من شرط الرضا ألا تحس بالألم والمكاره» ، ص١٧٥ .

(٢) المصدر نفسه ص١٨٤ .

الحديث السادس: المؤمن القوي

حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة وابن نُمَيْر قالا: حدثنا عبد الله بن إدريس عن ربيعة بن عثمان عن محمد بن يحيى بن حيان عن الأعرج عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**المؤمن القوي خيرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كلٍّ خيرٌ، احْرِصْ على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز، وإنْ أصابك شيءٌ فلا تقل لو أنّي فعلتُ كان كذا وكذا، ولكن قُلْ قدَرُ اللهِ وما شاء فَعَلَ؛ فإنّ لَوْ تفتح عملَ الشيطان**».

- تخريج الحديث:

- رواه مسلم: كتاب القدر، باب الإيمان للقدر والإذعان له. ج١٦ ص٢١٥ بشرح النووي.

- ابن ماجه: المقدمة ١٠ ـ الزهد ١٤.

- أحمد: ٢/ ٣٦٦، ٣٧٠.

- المعنى العام:

إن من مميزات الإسلام البارزة أنه دعوة جهادية ماضية في مواجهة الباطل إلى أن تقوم الساعة قال تعالى: ﴿**وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله**﴾(١).

وصدق رسول الله ﷺ حيث يقول: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأني رسول الله فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله»(٢). ومن طبيعة هذا الدين أنه لا يرضى لأتباعه الدنية في

(١) سورة الأنفال: ٣٩.

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي (باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله) ج١، ص٢٠٦.

شيء، ولا يقبل لهم الذل والهوان في أمر ﴿**ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين**﴾[1]. ولذلك فالجهاد طريق المؤمنين إلى الجنة وسبيلهم إلى مرضاة الله، والطريق لنعيم الآخرة وترك الجهاد، والتخلي عنه يورث الذل والهوان: قال النبي ﷺ: «يا أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف»[2].

وقد ربى النبي ﷺ أصحابه تربية جهادية فتاقت أنفسهم للجهاد، وشغفت به صدورهم، وتعلقت به أفئدتهم، فقالوا الحق وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر، وأقاموا العدل، وفهموا أبعاد الحديث «أن الجنة تحت ظلال السيوف».

وهذا الحديث لبنة من ذلك الصرح الجهادي الذي تربى في ظلاله أصحاب رسول الله ﷺ وفي ظلال قوله: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف». ويشرح الإمام النووي فيقول: المراد بالقوة هنا عزيمة النفس والقريحة في أمور الآخرة، فيكون صاحب هذا الوصف أكثر إقدامًا على العدو في الجهاد وأسرع خروجًا إليه وذهابًا في طلبه، وأشد عزيمة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والصبر على الأذى في كل ذلك، واحتمال المشاق في ذات الله، وأرغب في الصلاة والصوم والأذكار، وأنشط طلبا لها ومحافظة عليها ونحو ذلك[3].

ومن يستعرض سيرة الرسول ﷺ يتبين أنه كان يحرص على التربية الجهادية، فكان في معظم أوقاته بعد الهجرة في الغزوات والسرايا مجاهدًا في سبيل الله، يربّي الصحابة تربية شاملة خلال هذه الغزوات والسرايا. قال تعالى: ﴿**فليقاتل**

---

(١) سورة المنافقون: ٨.

(٢) صحيح مسلم، ج١٢ ـ كتاب الجهاد ـ باب كراهة تمني لقاء العدو والأمر بالصبر عند اللقاء، ص٤٥.

(٣) المصدر نفسه ج١٦ ص٢١٥.

في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة﴾[1]، ﴿انفروا خفافًا وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون﴾[2].

هذا والتربية الجهادية تعطي طاقة متجددة للمؤمن القوي وترفع معنويته. وكان ﷺ المثل الأعلى للمجاهد والقدوة الحسنة لمعاني القوة والشجاعة. عن أنس بن مالك رضي الله عنه: « كان رسول ﷺ أحسن الناس، وكان أجود الناس، وكان أشجع الناس، ولقد فزع أهل المدينة ليلة فركب فرسًا لأبي طلحة عريانًا فخرج الناس فإذا هم برسول الله ﷺ قد سبقهم إلى الصوت، قد استبرأ الخبر، وهو يقول: لن تراعوا» [3].

وكان ﷺ يقدم بين حين وآخر نماذج حية للمؤمن القوي ولمعاني الشجاعة والفروسية؛ ثبت عن النبي ﷺ أنه سابق بالأقدام وسابق بين الإبل، وثبت عنه أنه حضر نضال السهام. وفي سنن أبي داود من حديث عائشة قالت: «سابقني النبي ﷺ فسبقته فلبثنا حتى أرهقني اللحم سابقني فسبقني، فقال: هذه بتلك». هكذا كان ﷺ يشرح معاني ومفاهيم «المؤمن القوي خير. . .» بالقول والعمل. «وركانة بن يزيد الذي صارع النبي ﷺ بمكة قبل الإسلام وكان أشد الناس، فقال: يا محمد، إن صرعتني آمنت بك. فصرعه النبي ﷺ، فقال: أشهد أنك ساحر. ثم أسلم بعد»[4].

---

(١) سورة النساء: ٧١.

(٢) سورة التوبة: ٤١.

(٣) الفروسية لابن قيم الجوزية ـ فصل ركوب النبي ﷺ الفرس عريانًا وتقلده السيف ص١٥٩.

(٤) أخرج نحوه البيهقي في دلائل النبوة، ج٦ ص٢٥٠ من طريق ابن إسحاق عن أبيه مرسلاً نقلاً من كتاب الفروسية لابن قيم الجوزية ـ فصل مصارعة ﷺ، ص٨٧.

وكـان ﷺ يغرس معـالم القوة ومعـاني الجهـاد في نفوس أصحـابه في مـواقف متعددة، ففي صحيح البخـاري عن سلمة بن الأكوع قال: مـر النبي ﷺ بنفر من أسلم ينتضلـون بالسوق فقـال: «ارموا بني إسماعيـل فإن أباكم كـان راميًا، ارموا وأنا مع بني فلان»[1]. وكان الصحابة رضـوان الله عليهم يحبون الفروسية ويتشبعون بمعـاني القوة ويتدربون على تقـوية الجسم والعضلات، وكـان عقبة ابن عـامـر يختلف بين الغـرضين وهـو شيخ كبير، فقيل لـه: تفعل ذلك وأنت شيخ كبير يشق عليك؟ فقـال: لولا كـلام سمعته من رسـول الله ﷺ لم أعانِـهِ، سمعته يقول: «من تعلم الرمي ثم تركه فليس منا»[2].

والإسلام يحب المؤمن القوي لأن طبيعة هذا الـدين طبيعة جهادية تعتمد على القوة والعـزة والانطلاق نحو الجهاد لنشر هـذا الدين وتخليص المستضعفين من عبادة العباد إلى عبـادة رب العباد، فيتآلف مع الناس ويتحـالف مع الأصدقاء ويتعاهد مع الأعداء، ويحتاج إلى وسائل القوة لضرب الناقضين للعهد، ويحتاج للقوة عند إرهابهم وإرهاب من وراءهم. قال تعالى ﴿**وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين**﴾[3].

إن الإسلام يعاهد ليصون عهده، فإذا أدرك الخيانة من غيره نبذ العهد القائم جهـرة وعلانيـة فأمـا بعـد نبذ العهـد فـالحرب خـدعة وتتطلـب القوة واليقظـة والنشاط الـدائب؛ لأن كل خصم قـد أخذ حـذره، وكل وسائل الخداع يـومئذ مباحة؛ لأنها ليست غـادرة، والمؤمن القوي في مثل هذه الظروف له مكـانته وله دوره وثقله.

---

(١) المصدر نفسه ص٨٧.

(٢) الفروسية لابن قيم الجوزية ـ فصل النضال بحضرته ﷺ وإذنه فيه، ص١١٦.

(٣) سورة الأنفال: ٥٨.

ولذلك وسع الإسلام مفاهيم القوة من قوة الجسم إلى قوة القلم وقوة المال، هكذا فهم السلف معنى المؤمن القوي «فالفروسية فروسيتان: فروسية العلم والبيان وفروسية الرمي والطعان. ولما كان أصحاب النبي ﷺ أكمل الخلق في الفروسيتين فتح القلوب بالحجة والبرهان، والبلاد بالسيف والسنان.

وما الناس إلا هؤلاء الفريقان، ومن عداهما فإن لم يكن رِدءًا وعونًا لهما، فهو كلٌّ على نوع الإنسان»[1].

والقرآن يدعو المؤمنين إلى إعداد القوة وتهيئة الأسباب وتقوية الأجسام استعدادًا للجهاد قال تعالى: ﴿**وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون**﴾[2].

وفي صحيح مسلم عن عقبة قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: ﴿**وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة**﴾ ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي».

وفهم الصحابة أبعاد معاني الرمي، فكان سعد يقول: أي بني تعلموا الرماية فإنها خير لُعبكم. وكتب عمر بن الخطاب إلى أبي عبيدة بن الجراح أن علموا غلمانكم العوم ومقاتلتكم الرمي[3].

فالاستعداد بما في الطوق فريضة تصاحب فريضة الجهاد، والنص القرآني يأمر بإعداد القوة على صنوفها وألوانها وأسبابها، (من قوة) نكرة والتنوين هنا يفيد العموم والشمول، ويخص (رباط الخيل) لأنه الأداة التي كانت مميزة عند من كان يخاطبهم هذا القرآن، ولو أمرهم بإعداد أسباب لا يعرفونها في ذلك

(١) الفروسية لابن القيم ـ فصل فروسية العلم والبيان وفروسية الرمي والطعان ـ ص١٥٧.
(٢) الأنفال: ٦٠.
(٣) الفروسية لابن قيم الجوزية ص١١٨، ١١٩.

الحين مما سيجد مع الزمن لخاطبهم بمجهولات محيرة، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا، والمهم هو أن تفهم أن رباط الخيل متجدد مع تجدد الأيام والعصور؛ لأنه لا بد للإسلام من قوة ينطلق بها في الأرض لإنقاذ المستضعفين ﴿**وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها**﴾[1].

ويقول ابن كثير في شرح ﴿**وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة**﴾ أمر تعالى بإعداد آلات الحرب لمقاتلتهم حسب الطاقة والإمكان فقال ﴿**وأعدوا لهم ما استطعتم**﴾.

قال الإمام أحمد: حدثنا هارون بن معروف حدثنا ابن وهب أخبرني عمرو ابن الحارث عن أبي علي ثمامة بن شفى أخي عقبة بن عامر أنه سمع عقبة بن عامر يقول: سمعت رسول الله ﷺ على المنبر: «﴿**وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة**﴾ ألا إن القوة الرمي»[2].

وعندما يشرح نبي الهدى ﷺ الآية المذكورة بقوله: «ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي يظهر بجلاء أن أبرز خصائص الجهاد الرماية بكل أشكالها، وهي من أهم أسباب القوة، ولم يكتف رسول الله ﷺ بحث المسلمين على تعلم الرماية، بل طلب الاستمرار في ممارستها؛ فعن خالد بن يزيد الجهني قال: كان عقبة بن عامر يمر بي فيقول: يا خالد اخرج بنا نرمي. فلما كان ذات يوم أبطأت عنه، وقال: يا خالد تعال أخبرك بما قال رسول الله ﷺ فأتيته، فقال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يُدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة: صانعه يحتسب في صنعه، والرامي به ومنبله، وارموا واركبوا وأن ترموا أحب إليّ من أن

---

(١) النساء: ٧٥.

(٢) تفسير ابن كثير، م٢ ص٥٠٣ ط دار الكتب العلمية.

تركبوا وليس اللهو إلا في ثلاثة: تأديب الرجل فرسه وملاعبته امرأته ورميه بقوسه ونبله. ومن ترك الرمي بعد ما علمه رغبة عنه فإنها نعمة كفرها أو قال كفر بها»(١).

والحديث صورة حية من صور الحياة النامية المتطورة في المجتمع المدني الجديد، مجتمع الجهاد والغزوات، ولقطة جميلة من التدريب المستمر الدائب للأخذ بأسباب الجهاد ومعايشة مفاهيم الآية ﴿**وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل**﴾ ويصور جانبًا من لمحات التربية الجهادية المستمرة، علمًا وعملاً؛ فعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «من مات ولم يغزُ ولم يحدث نفسه بغزوٍ مات على شعبة نفاق»(٢).

وعن أبي نُجيح السلمي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من بلغ بسهم في سبيل الله فهو له درجة في الجنة فبلغت يومئذ ستة عشر سهمًا. قال: وسمعت رسول الله ﷺ يقول: من رمى بسهم في سبيل الله فهو عدل مُحَرَّر»(٣).

فحين يشرح الرسول ﷺ معاني القوة في قول الحق تبارك وتعالى: ﴿**وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة**﴾ مفسرًا أن القوة الرمي، ففيه من الإعجاز النبوي الذي أثبتته الحروب بين الأمم عبر السنين، على أن الرماية بجميع أنواعها هي العنصر الأساسي لكسب المعارك وإحراز النصر، ابتداءً من رماية السهام والنبال إلى رماية الرصاص وراجمات الصواريخ البعيدة المدى. فالرماية في الواقع كانت ولا تزال تغطي المساحة الكبرى والأهم من مفاهيم القوة والاحتياجات الجهادية القتالية.

---

(١) سنن النسائي بشرح السيوطي وبحاشية السندي، ج٦، كتاب الخيل، باب تأديب الرجل فرسه، ص٢٢٣.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه، كتاب الجهاد (ثواب من رمى بسهم في سبيل الله).

وما أشد حـاجة الأمة الإسلامية في مثل هذه الأيـام إلى المؤمن القوي الرامي، و إلى قوة تسنـد ظهرها وتشد أزرهـا وتأخذ بيدها، وتـذلل لها العقبات وتهيئ لها الأسباب لإنقاذ و إسعاف المستضعفين في مشارق الأرض ومغاربها، قال تعالى: **﴿وما لكـم لا تقاتلون في سبيـل الله والمستضعفين من الرجـال والنساء والـولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القـرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا﴾**(١).

فالإيمان بالله هو الذي يمدنا بـروح القوة بجميع اتجاهاتها فالمؤمن لا يرجو إلا فضل الله ولا يبالي شيئًا إلا في جنب الله، وتتجلى قـوة الإيمان في قصة خبيب بن عدى عندما جاءوا بـه ليصلبوه قال: لهم إن رأيتم أن تدعوني حتى أركع ركعتين فافعلـوا، قالـوا: دونك فاركع فـركع ركعتين أتمها وأحسنها ثـم أقبل على القوم فقال: والله لولا أن تظنـوا أني إنما طولت جزعًا من القتل لاستكثـرت من الصلاة وأنشد مقطوعة مطلعها:

لقـد جَمَّعَ الأحـزاب حولـي وألبـوا ... قبائلهـم واستجمعـوا كـل مجمـع

ومنها قوله:

إلى الله أشكـو غـربتي بعـد كـربتي ... ومـا جمَّع الأحـزاب لي عنـد مصرعي
وذلـك في شأن الإلـه وإن يشـأ ... يبـاركْ على أوصـال شلـو ممـزَّع
ولسـت أبـالي حين أقتـل مسلمًا ... على أي جنب كان في الله مصرعي(٢)

فمن مصادر القـوة عند المؤمن قول الحق، ومن مصادرهـا الإيمان بالخلود في الجنة، ومن مصادر القوة الإيمان بقضاء الله وقـدره، فهو يعلم أنه ما أصاب من

---

(١) سورة النساء: آية ٧٥.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام تحقيق مصطفى السقا وزملاؤه الطبقة الثانية القسم الثاني جـ٣ـ٤ ص١٧٦.

مصيبة فهو بإذن الله ﴿**قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا**﴾[1]. فالمؤمن يعتقد أن رزقه مقسوم وأن أجله محدود، لا يستطيع أحد أن يحول بينه وبين ما كتب الله له، فيلتزم بالحق ويلتزم بالأخلاق في القول والعمل، ويتحرر من الخوف والحرص والجبن والبخل، ويتصف بجميع مقومات القوة. وهذا المؤمن القوي، القوي في إيمانه وعقيدته وفي علمه وفي جسمه وفي سلاحه وفي رمايته خير من المؤمن الضعيف.

- مفهوم آخر للقوة:

ويوضح رسول الله ﷺ أحد مفاهيم المؤمن القوي بأسلوب آخر، فعن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليس الشديد بالصرعة قالوا: فالشديد أيُّمَ هو يا رسول الله؟ قال: الذي يملك نفسه عند الغضب»[2]. والمؤمن القوي بهذه المفاهيم الشاملة خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف.

«وفي كلٍّ خير» التنوين في (كلٍّ) يسمى (تنوين عِوَض) وهو التنوين الذي يأتي عوضًا عن حرف أو كلمة أو جملة.

وأما قوله ﷺ: «وفي كلٍّ خير» فمعناه في كل من القوي والضعيف خير لاشتراكهما في الإيمان مع ما يأتي به الضعيف من العبادات[3]، فقد يكون المؤمن ضعيفًا في بدنه قويًّا في إيمانه وماله، وقد يكون نحيفًا نحيل الجسم ولكنه قوي الفكر والقلم، وإلى هذا تشير الكلمة النبوية «وفي كلٍّ خير».

---

(١) سورة التوبة: الآية ٥١.

(٢) صحيح مسلم، ج١٦، باب فضل من يملك نفسه عند الغضب.

(٣) صحيح مسلم، ج١٦ ص٢١٥.

«احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز»، ومعناه احرص على طاعة الله والرغبة فيما عنده، واطلب العون من الله تعالى على ذلك ولا تعجز ولا تكسل عن طلب الطاعة ولا عن طلب العون، ومن علامات المؤمن أن يمتاز بالحرص والنشاط والرغبة الصادقة في أداء الواجبات، فالحرص والرغبة تحارب العجز والكسل عن طلب الطاعات لتحقيق المطالب، وبعد اتخاذ هذه الأسباب والوسائل لا يتأسف ولا يندم ولا يفتح باب الوساوس والشيطان، فيقول: «لو أني فعلت لكان كذا وكذا ولكن قدر الله وما شاء فعل فإن لو تفتح عمل الشيطان». قال القاضي عياض: قال بعض العلماء: هذا النهي إنما هو لمن قاله معتقدًا ذلك حتمًا وأنه لو فعل ذلك لم تصبه قطعًا، فأما من ردَّ ذلك إلى مشيئة الله تعالى بأنه لن يصيبه إلا ما شاء الله فليس من هذا [1]. وهذا كلام جامع نافع يحتوي على سعادة الدنيا والآخرة. والأمور النافعة قسمان: أمور دينية وأخرى دنيوية، والعبد محتاج إلى الدنيوية، ثم إنه محتاج إلى الدينية، فمدار سعادته وتوفيقه على الحرص والاجتهاد في الأمور النافعة منهما مع الاستعانة بالله تعالى، فمتى حرص العبد على الأمور النافعة واجتهد فيها وسلك أسبابها وطرقها واستعان بربه في سبيل حصولها وتكميلها كان في ذلك كماله وفلاحه، ومتى فاته واحد من هذه الأمور الثلاثة فاته من الخير بحسبها، فمن لم يكن حريصًا على الأمور النافعة، بل كان كسلان لم يدرك شيئًا، فالكسل هو أصل الخيبة والفشل [2].

- ما يستفاد من الحديث:

● المؤمن القوي معناه القوي في إيمانه وبدنه وفكره وماله، وكل ما يؤدي إلى قوة الأمة الإسلامية.

---

(١) المرجع نفسه، ج١٦ ص٢١٥ ـ ٢١٦.

(٢) بهجة قلوب الأبرار، ص٤٢ ـ ٤٤.

● ومن عـلامات القـوة في المؤمن الحرص والنشاط الـدائب في ما ينفع البـلاد والعباد.

● على المؤمن البعـد عن العجـز والاستسـلام والتبرم، ليكون نمـوذجًـا حيًّـا للحيوية والحركة والفتوة.

● ومن علامات المؤمن القوي أن يكون مؤمنا بقضاء الله وقدره في كل الأحيان.

● والحديث يشير أيضًـا إلى اتخاذ الأسبـاب والاحتيـاط والحذر ثم الإيمان بالقضاء والقدر.

● المؤمن القـوي قبل أن ينطلق للجهاد في المعـركـة يكون قـد خـاض معركـة الجهاد الأكبر في نفسه مع الشيطـان، مع هواه وشهواته، مع مطامعـه ورغباته، مع مصالحه ومصالـح عشرته وقومه، مع كل شارة غير شـارة الإسلام، ومع كل دافع إلا العبودية لله.

- فقه الحديث:

الإيمان بالقضاء والقدر واجب وهو:

كتب الله في اللوح المحفوظ مقاديـر الخلق، «فأوّل ما خلق الله القلم قال له: اكتب. قال: مـا أكتب ؟ قال: اكتب ما هـو كائن إلى يوم القيامـة» فما أصاب الإنسان لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه.

وهذا التقديـر التابع لعلمه سبحانـه، فقد كتب في اللوح المحفـوظ ما شاء، إذا خلق جسـد الجنين قبل نفخ الـروح فيـه، بعـث إليـه ملكـا، فيـؤمـر بأربع كلمات: اكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد.

ويدخل فيه القوي والضعيف: ولـذلك وضح الرسول ﷺ هذا اللبس: وفي كل خير.

«ويدخل فيه مشيئة الله النافذة، وقدرته الشاملة، وهو الإيمان بأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن»، فلا يجوز لمؤمن أن يقول لو أني فعلت كان كذا وكذا؛ لأنه ما في السموات والأرض من حركة ولا سكون إلا بمشيئة الله سبحانه، ولا يكون في ملكه إلا ما يريد، وأنه سبحانه وتعالى على كل شيء قدير من الموجودات المعدومات[1].

- حكم «لو»: يختلف باختلاف ما قصد بها: أ ـ قد تستعمل في تمني الشر والمعاصي فإنه أيضًا المذموم. ب ـ أما إذا استعملت في تمني الخير أو في بيان العلم النافع فإنها محمودة كما قال ﷺ: «لو استقبلت من أمري ما استدبرت»، وكذلك من الأمور المستقبلية كقوله عليه السلام: «لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة».

ولو كنت راجمًا أحدًا بغير بينة لرجمت هذه..

وقول أبي بكر رضي الله عنه: لو نظر أحدهم إلى رأسه لرآنا.. والله أعلم.

---

(١) راجع فتاوى ابن تيمية ج٣ ص١٤٨ ـ ١٤٩.

الحديث السابع: المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده

حدثنا آدم بن أبي إياسٍ قال: حدثنا شعبة عن عبد الله بن أبي السَّفر وإسماعيل عن الشعبيِّ عن عبد الله بن عمرو - رضي الله عنهما - عن النبي ﷺ قال: «**المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه**».

- تخريج الحديث:

- صحيح ابن حبان - ضبط كمال يوسف الحوت، ج١ ص٢٠٩، ذكر إثبات الإسلام لمن سلم المسلمون من لسانه ويده.

- صحيح البخاري: كتاب الإيمان، باب المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، م١ ص٥٣.

- سنن النسائي بشرح السيوطي والسندي: باب صفة المسلم. وزاد فيه عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا فذلكم المسلم».

وفي باب صفة المؤمن، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن رسول الله ﷺ قال: «المسلم من سلم الناس من لسانه ويده، والمؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم». ج٧ ص١٠٥.

- أخرجه مسلم في باب بيان تفاضل الإسلام، رواية عن جابر وأخرى عن أبي موسى قال: قلت أي الإسلام أفضل؟ قال: «من سلم المسلمون من لسانه ويده».

عن عبد الله بن عمرو بن العاص يقول: إن رجلاً سأل رسول الله ﷺ: أي المسلمين خير؟ قال: «من سلم المسلمون من لسانه ويده» ج٢ ص ١٠ - ١١.

- تحفة الأحوذي م٧، أبواب صفة القيامة، رواية عن أبي موسى، ص٢٠٤.

- مختصر سنن أبي داود للحافظ المنذري، تهذيب الإمام ابن قيم الجوزية، أول كتاب الجهاد، باب في الهجرة هل انقطعت؟ ج٣ ص٣٥٣.

- سنن الدارمي ج٢ من كتاب الرقائق، باب في حفظ اليد، ص٣٠٠.

- المسند ج٢ وفيه عن عبد الله بن عمرو بن العاص يقول: إن رجلاً قال: يا رسول الله أي الإسلام أفضل؟ قال: من سلم الناس من لسانه ويده. ص١٨٧.

- المعاني اللغوية والبلاغية:

المسلم: قيل الألف واللام فيه للكمال نحو زيد الرجل أي الكامل في الرجولية. من سلم المسلمون، ذكر المسلمين هنا خرج مخرج الغالب، والإتيان بجمع التذكير للتغليب فإن المسلمات يدخلن في ذلك.

وفي التعبير باللسان دون القول نكتة، فيدخل فيه من أخرج لسانه على سبيل الاستهزاء. وفي ذكر اليد دون غيرها من الجوارح نكتة فيدخل فيها اليد المعنوية كالاستيلاء على حق الغير بغير حق.

فائدة: وفيه من أنواع البديع تجنيس الاشتقاق وهو كثير.

المهاجر: هو بمعنى الهاجر، وهذه الهجرة ضربان: ظاهرة وباطنة، فالباطنة ترك ما تدعو إليه النفس الأمارة بالسوء والشيطان، والظاهرة الفرار بالدين من الفتنة.

- المعنى العام:

المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده معناه المسلم الكامل، وليس المراد نفي أصل الإسلام عن من لم يكن بهذه الصفة بكل هذا، كما يقال: العلم ما

نفع، أو العالم زيد، أي الكامل أو المحبوب، وكما يقال: الناس العرب، والمال الإبل، فكله على التفضيل. ويدل على ما ذكرناه من معنى الحديث قوله: أي المسلمين خير؟ قال: من سلم المسلمون من لسانه ويده. ثم إن كمال الإسلام والمسلم متعلق بخصال أخر كثيرة، وإنما خص ما ذكر لما ذكرناه من الحاجة الخاصة(١).

وفهم هذا الحديث يحتاج إلى دراسة النواحي التاريخية التي تعود إلى تاريخ هجرة الرسول ﷺ، ودراسة المجتمع المدني الذي يتكون من الأوس والخزرج من قحطان، والمهاجرين ومن سبق إلى الإسلام في مكة وما حولها من عدنان. ولما هاجر الرسول ﷺ إلى المدينة وقام الأنصار بنصره اجتمعت بذلك عدنان وقحطان تحت لواء الإسلام.

وعلاوة على ذلك كانت في المدينة ثلاث قبائل من اليهود القينقاع والنضير وقريظة، وكانت لهم حصون وآطام وقرى يعيشون فيها متكتلين ومستقلين، وكانت علاقة اليهود بالأوس والخزرج خاضعة للمنفعة الشخصية؛ فهم يعملون على إثارة الحرب بين الفريقين متى وجدوا في إثارتها فائدة لهم.

ووقعت كذلك بين الأوس والخزرج حروب كثيرة، أولها حرب سمير، وآخرها حرب بُعاث قبل الهجرة بخمس سنوات، وقد عمل اليهود من جانبهم على الدس بين الأوس والخزرج، وتشجيع عوامل الفرقة، وإذكاء روح التحاسد حتى يشغلوهم بأنفسهم عنهم(٢).

---

(١) صحيح مسلم، ج٢، باب بيان تفاضل الإسلام، ص١٠.
(٢) راجع القصة التي رواها ابن هشام، ج١ ص٥٥٠.

وفي وسط هـذه العصبيات والعنصريـات اعتبر الإسلام المؤمنين كلهم إخـوة ﴿**إنما المؤمنون إخوة**﴾. قال السهيلي : «آخى رسـول الله ﷺ بين أصحابه حين نزلـوا المدينة ليـذهب عنهم وحشة الغربـة ويؤنسهم من مفـارقة الأهل والعشيرة ويشد أزر بعضهم بعضًا»(١).

وكان ﷺ حريصًا على رعاية هذه الأخوة وتنميتها وتعميقها.

وكان يعكر صفو هذه الأخـوة بعض المشاحنات الطفيفة التي تحدث عادة في مثل هـذه البيئات المختلطـة. حدثنـا زهير حدثنـا أبـو الزبير عن جـابر قـال: «اقتتل غـلامان، غـلام من المهاجـرين وغـلام من الأنصار فنـادى المهاجـر أو المهاجرون: يا للمهـاجرين، ونادى الأنصاريُّ: يا لـلأنصار، فخرج رسول الله ﷺ فقـال: ما هـذا؟! دعـوى أهل الجاهلية؟ قـالـوا: لا يا رسـول الله، إلا أن غلامين اقتتلا فكسع أحدهما الآخر. قـال: فلا بأس، ولينصر الرجل أخاه ظالمًا أو مظلومًا إن كان ظالمًا فلينهه فإنه له نصر وإن كان مظلومًا فلينصره»(٢).

والحديث يشير إلى حرص الـرسول ﷺ على تعهده لاستمرار الأخـوة النامية، فسرعـان مـا وصل إلى مكـان الحادث واستنكـر قـائلاً: مـا هـذا؟ دعـوى أهل الجاهليـة؟ ولما عرف القصـة أنها بين غلامين هـدأ جأشه، ووقف وقفـة المربي، ينصح ويـرشد إلى الأسـاليب المطلـوبة لمعـالجة هـذه الوقـائع اليسيرة؛ حتى لا تتعقد فتكبر وتـوسع الشقة بين المسلمين، فقال: فلا بأس ولينصر الـرجل أخاه ظالمًا، أي يمنعـه من الظلم، أو مظلـومًا، فيقف بجـانبه ويدافـع عنه. وبهذا وضع أسلوبًا تربويًّا للدفاع عن الحق.

---

(١) الروض الأنف، ج٢ ص٢٥٢.

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي، ج١٦، باب نصر الأخ ظالمًا أو مظلومًا، ص١٣٧، ١٣٨.

ومن هذه الأساليب التربوية قوله: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده». وكأن كلمة اليد تتمثل في معنى كسع، وتصور تحرك اليد الشديدة وهي تنطلق نحو مسلم لإيذائه، وهذا الاندفاع يتبعه التلفظ بكلمات جارحة، وهذا معنى قوله ﷺ «من لسانه». وكانت هذه الحادثة وأمثالها تجدُّ بين الحين والآخر، مما يعكر جو المجتمع الأخوي، ويتطلب إدراكًا سريعًا وعلاجًا ملائماً لمثل هذه المواقف. حدثنا سفيان بن عيينة، سمع عمرو جابر بن عبد الله يقول: «كنا مع النبي ﷺ في غداة فكسع[1] رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال الأنصاري: يا للأنصار. وقال المهاجري: يا للمهاجرين. فقال رسول الله ﷺ: ما بال دعوى الجاهلية؟ قالوا: يا رسول الله كسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار. فقال: دعوها فإنها منتنة. فسمع عبد الله بن أبي فقال: قد فعلوها، والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل. قال عمر: دعني أضرب عنق هذا المنافق. فقال: دعه لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه[2]. وإلى هذا يشير القرآن ﴿**لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل**...﴾.

وكانت هذه الحادثة وأمثالها تتجدد بين حين وآخر مما يعكر صفو المجتمع المدني وكان ذلك لأكثر من سبب:

١ - وجود المنافقين واليهود بالمدينة وإدراكهم خطورة الأخوة وأهميتها.

٢ - رواسب الحروب الماضية التي حدثت بين الأوس والخزرج.

٣ - كان العرب تابعين لقريش وأهل مكة في العقيدة والديانة، ينظرون إلى قريش كسدنة للبيت وقادة في الدين وقدوة في الاعتقاد والعبادة.

---

(١) «كسع» أي ضرب دبره وعجيزته بيد أو رجل أو سيف.

(٢) صحيح مسلم، ج١٦ باب تحريم الظلم ص١٣٨.

وكانت قريش تعترف بشرف الأوس والخزرج، وهم بنو قحطان، العرب العاربة، وكانوا يصاهرونهم، إلا أنهم كانوا يرون لأنفسهم فضلاً عليهم، وقد قال عتبة بن ربيعة يوم بدر عندما خرج إليهم فتية من الأنصار: يا محمد أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا. فقال رسول الله ﷺ: قم يا أبا عبيدة بن الحارث، وقم يا حمزة وقم يا علي... قالوا: نعم أكفاء كرام.

وكانوا ينظرون إلى الفلاحة التي كان يمارسها أهل المدينة بحكم طبيعة أرضهم ولاعتمادهم عليها نظرة فيها شيء من الاحتقار(١).

ولذلك تجددت هذه الاشتباكات أكثر من مرة؛ أخبرنا عبد الرزاق أخبرنا معمر عن أيوب عن عمرو بن دينار عن جابر بن عبد الله قال: «كسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار فأتى النبيّ ﷺ فسأله القود. فقال النبي ﷺ: دعوها فإنها منتنة»(٢).

والحديث يتطلب وقفة دراسية؛ فالذي اندفع للضرب وكسع فعلاً مسلم مهاجر ومن حق الأنصاري أن يطلب القود، ولكن حب الانتقام وطلب الثأر ليس من الأخوة في شيء، والرسول ﷺ يسعى جاهدًا للقضاء على العنصرية والعصبية وإحلال الأخوة محل الرواسب الجاهلية، فيثير في الأنصاري كوامن الأخوة ويطلب منه العفو والصفح قائلاً: «دعوها فإنها منتنة». ويتراءى للدارس أن هذه القضية وأمثالها كانت تشغل بال الرسول ﷺ، وكان شديد العناية بمعالجتها، ولذلك ورد الحديث: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده» بأكثر من رواية، وفي معظم كتب الصحاح الستة وبشيء يسير من الاختلاف في كل مرة؛ ففي صحيح ابن حبان ورد بلفظ «المهاجر من هجر السيئات والمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده».

---

(١) راجع السيرة النبوية، للندوي، باب تصوير المدينة عند الهجرة، ص١٣٢ ـ ١٤٤.
(٢) صحيح مسلم، ج١٦، باب نصر الأخ ظالمًا أو مظلومًا، ص١٣٩.

وكأنه ﷺ أدرك خطورة تكرار هذا الحادث من قبل المهاجر فعالجه بأسلوب تربوي لطيف «المهاجر من هجر السيئات»، وكأنه وقف أكثر من مرة أمام هذه المشكلة الاجتماعية ناصحًا وموجهًا، وفي كل مرة زاد وأضاف، ففي سنن النسائي عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم». وكأن المسألة تطورت من الغمز واللمز والضرب باليد والرجل إلى إراقة الدماء والاعتداء على الأموال، وتضجر الناس من هذه الاهتزازات النفسية فوجهوا سؤالاً «أي الإسلام خير؟» وكأن السائل يحب أن يتبين كيف الطريق لإيجاد مجتمع متآلف، فبين النبي ﷺ طرق التآلف والتواد قائلاً: «تطعم الطعام وتقرئ السلام على من عرفت ومن لم تعرف»؛ فإن إطعام الطعام وإفشاء السلام من الوسائل الشرعية التي تطهر أدران النفوس؛ إذ الإطعام مستلزم لسلامة اليد، والسلام لسلامة اللسان[1].

والنبي ﷺ بهذا التوجيه الواقعي الفعال يحب أن يقيم مجتمعًا إسلاميًّا له حرمته وله نظمه وإجراءاته، وهو عالم له آدابه النفسية في مشاعره تجاه بعضهم البعض، وله آدابه السلوكية مع الآخرين. وهذه الروابط تزداد قوة ومتانة بإطعام الطعام، وإفشاء السلام. وقوله: «من سلم المسلمون» أي والمسلمات إما تغليبًا وإما تبعًا، والمرأة المسلمة مطالبة أيضًا باتخاذ وسيلة إطعام الطعام وإفشاء السلام. وهناك رواية أخرى توسع دائرة المجتمع الإسلامي، فعن أنس رضي الله عنه: «من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا فذلك المسلم»[2]. ولذلك قال العلماء: إنه يلحق بالمسلمين أيضًا أهل الذمة حكماً في حسن معاملتهم.

---

(١) فتح الباري م١، باب المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، ص٥٦.

(٢) سنن النسائي، ج٧ باب صفة المسلم، ص١٠٥.

وهـو ﷺ يريـد بذلك أن يقيم مجتمعًـا نظيف المشاعـر، مكفول الحرمـات مصون الغيبـة والحضرة، لا يؤخـذ فيه أحـد بظنه ولا تتبع فيـه العورات ولا يتعرض فيـه أمن الناس وكراماتهم وحـرياتهم لأدنى مساس، وهـو مجتمع له فكـرتـه الساميـة عن وحـدة الإنسـانيـة المختلفـة بشريعة الأجنـاس المتعـددة الشعوب، له ميزانه الواحد الـذي يقوم به الجميع معتقدًا أنه ميزان شريعة الله المبرأة من شـوائب الهوى وأنه ميـزان الأخـوة. والحديث بهذا المفهوم يـرسم معالم المجتمع الرفيـع الكريم النظيف ويحدد معالم الإيمان الذي بـاسمه دعا إلى إقامة ذلك المجتمع، وفي مثل هـذا الجو يطالب المسلم بأن يعيش مع الجماعة، يعمل ويبني ويتـآخى ويتـآلـف، وإذا تطلب الأمـر فيتحمل بعض مـا يكـره ويتغـاضى عن بعـض مـا لا يستطيع مقـاومتـه، ويتـدرب ألاّ يتلفظ بكلمـة جارحة، ولا يؤذي أحدًا بلسانه؛ لأن المسلم مرهف الحس.

جراحات السنان لها التئام ولا يَلْتَئِمُ ما جرح اللسان

وبهذا الشعور المتبادل والأخوة الحية تكـون للجماعة المسلمة قوة قادرة على مـواجهة الأعـداء وكبح جماحهم، ويترتب على هـذا التأني والحذر أن يكـون الحب والسـلام والتعـاون والوئام والتراحم والتنـاصح هـو الأصل في البيئـة الإسلامية، وأن يكون الخلاف والنزاع هو الاستثناء الذي يجب أن يعالج وأن يـرد إلى الأصل فـور وقـوعـه. وهـذا معنى قـولـه ﷺ: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه».

- ما يستفاد من الحديث:

١ - إن الإسـلام الحقيقي لا يتم للمسلم إلا بـالقيام بحقـوق الله وحقـوق المسلمين، وبأن يحب لهم ما يحب لنفسـه، وتمامه بكف أذاه عنهم وسـلامتهم من شر لسانه وبطش يده.

٢ - إن المؤمن الحقيقي هو الذي تمكن الإيمان من قلبه ودفعه إلى رعاية مصالح المسلمين وحافظ على أمانتهم ودمائهم .

٣ - وجوب تجنب إيذاء المسلمين بشتى صوره باللسان وبالقلم وبالسنان .

٤ - الإيمان يدفع المؤمن لأن يؤمن على أموال المسلمين وأعراضهم ودمائهم .

٥ - إيذاء المسلمين ومن لا يأمنه الناس لا إيمان له .

٦ - الهجرة نوعان : ترك الوطن الأصلي إلى مكان آخر وهي خاصة ، وهجرة عامة هي ترك ما نهى الله عنه .

- فقه الحديث:

الأصل أن دماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم محرمة من بعضهم على بعض ، لا تحل إلا بإذن الله ورسوله ، قال النبي ﷺ لما خطبهم في حجة الوداع : «إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا» . وقال ﷺ : «من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا فهو المسلم له ذمة الله ورسوله» . وقال : «إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار . قيل : يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال : إنه أراد قتل صاحبه» . وقال : «لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض»[1] .

(١) فتاوى ابن تيمية م٣ ص٢٨٣ . فصل (لا يجوز تكفير المسلم بذنب فعله) .

الحديث الثامن: التوكل على الله سبيل للرزق

حدثنا علي بن سعيد الكِنْدِيُّ، حدثنا ابن المبارك، عن حيوة بن شُرَيْح، عن بكر بن عمرو، عن عبد الله بن هُبَيْرة، عن أبي تميم الجَيْشاني، عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله ﷺ: «**لو أنكم كنتم تتوكلون على الله حقَّ توكُّلِهِ لرُزِقْتُم كما يُرْزَقُ الطيرُ تغْدُو خِمَاصًا وترُوحُ بِطَانًا**».

- تخريج الحديث:

هذا حديث حسن صحيح لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وأبو تميم الجيشاني اسمه عبد الله بن مالك.

- الترمذي: كتاب الزهد ص٣٣.

- تحفة الأحوذي: باب ما جاء في الزهادة في الدنيا، ج٧ ص٨.

- المعاني اللغوية والبلاغية:

التوكل: هو صدق الاعتماد على الله عز وجل في استجلاب المنافع ودفع المضار من الدنيا والآخرة كلها.

قال الحسن: إن توكل العبد على ربه أن يعلم أن الله هو ثقته.

- «تغدو» أي تذهب أول النهار.

- «خماصا» بكسر الخاء جمع خميص أي جياعًا.

- «تروح» أي ترجع آخر النهار.

- «بطانا» جمع بطين وهو عظيم البطن، المراد شباعًا.

- (تغدو، وتروح) طباق.

(خماصا، وبطانا) طباق.

- الـراوي:

عمـر بن الخطـاب ــ رضي الله عنـه ــ هـو عمـر بن الخطـاب بن نفيل بن عبـدالعـزى عـدي بن كعب بـن لـؤى، أمير المؤمنين، أبـو حفص العـدوي القرشي الفاروق، أسلم في السنة السادسة من النبوة وله سبع وعشرون سنة، وكان من أشراف قريش، وإليه كانـت السفارة في الجاهلية، فكانت قريش إذا وقعت الحرب بينهم أو بين غيرهـم بعثـوه سفيرًا أي رسـولاً، وهـو أحـد السابقين الأولين وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة، وأحد الخلفاء الراشدين، وأحد أصهار النبي ﷺ، وأحد كبار علماء الصحابة وزهادهم.

روي له عن النبي ﷺ خمسمائة وتسعة وثلاثون حديثًا، أخرج الترمذي عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال: «اللهم أعز الإسلام بأحب هذين الرجلين إليك: بعمـر بن الخطـاب، أو بأبي جهل بن هشـام». وأخرج أحمد عن عمـر قـال: خرجت أتعـرض الرسـول ﷺ فوجدتـه قد سبقني إلى المسجـد فقمت خلفه فـاستفتح سورة الحاقـة فجعلت أتعجب من تأليـف القرآن، فقلت والله هـذا شعر كما قالت قـريش، فقرأ ﴿**إنه لقول رسـول كريم * وما هو بقـول شاعر قليلا ما تؤمنون**﴾ الآيات. فوقع في قلبي الإسلام كل موقع.

هذه أول بركة من بركات دعاء الرسول ﷺ، وبدأ الإسلام يتسرب إلى قلب عمر وذهنـه ويحرك وجدانه ومشاعـره إلى أن سمع بقصة إسلام أختـه وختنه، فانطلق إليهما قـائلاً فلعلكما قد صبأتما، فقال لـه ختنه: يا عمـر إن كان الحق في غير دينك؟ فوثب عليـه عمر ووطئه وطـأً شديدًا، فجـاءت أخته وهي غضبى وتقول: وإن كان الحق في غير دينك؟ إني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسـوله. فقـال عمر: أعطـوني الكتاب الـذي هـو عندكم فأقـرأه... إلخ. وأخذ ابن سعد والطبراني عن ابن مسعود رضي الله عنه، قال: كان إسلام عمر

فتحًا، وكانت هجرته نصرًا، وكانت إمامته رحمة، ولقد رأيتنا وما نستطيع أن نصلي للبيت حتى أسلم عمر، فلما أسلم عمر قاتلهم حتى تركونا فصلينا.

- فضائله:

أخرج الشيخان عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال النبي ﷺ: «بينما أنا نائم رأيتني في الجنة فإذا امرأة تتوضأ إلى جانب قصر، قلت: لمن هذا القصر؟ قالوا: لعمر. فذكرت غيرتك، فوليت مدبرًا. فبكى عمر، وقال: أعليك أغار يا رسول الله؟».

وأخرج الشيخان عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «بينما أنا نائم شربت ـ اللبن ـ حتى أنظر الري يجري في أظفاري، ثم ناولته عمر. قالوا: فما أولته يا رسول الله؟ قال: العلم».

وأخرج البخاري عن أبي هريرة قال النبي ﷺ: «لقد كان فيمن قبلكم من الأمم ناس محدثون فإن يكن في أمتي أحد فإنه عمر» أي ملهمون.

وأخرج الترمذي عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال: «إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه». قال ابن عمر: وما نزل بالناس أمر قط فقالوا وقال إلا نزل القرآن على نحو ما قال عمر.

وعن ابن عباس قال: سمعت عمر يقول: لما توفي عبد الله بن أبي دُعيَ رسول الله ﷺ للصلاة عليه فلما وقف قلت: أعَلَىَ عدو الله عبد الله بن أَبي القائل كذا وكذا؟ ورسول الله ﷺ يبتسم حتى إذا أكثرت قال: يا عمر أخر عني إني قد خيرت قد قيل لي ﴿**استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم**﴾[1]. فلو أعلم أني إن زدت على السبعين غفر لهم

(١) سورة التوبة: ٨٠.

لزدت عليها . ثم صلى عليه رسول الله ﷺ ومشى معه حتى قام على قبره حتى فرغ منه . فعجبت لي ولجرأتي على رسول الله ﷺ؛ والله ورسوله أعلم . فوالله ما كان إلا يسيرًا حتى نزلت هاتان الآيتان ﴿**ولا تصل على أحد منهم مات أبدًا ولا تقم على قبره**﴾[1] . فما صلى رسول الله ﷺ على منافق بعده .

وكتاب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري في القضاء كتاب فريد في بابه، يجمع كثيرًا من قواعد الأصول والفقه واستنباط الأحكام، ويدل على أصالة الرأي، ودقة فهم، وحسن بصيرة . وقد شرحه العلامة ابن القيم في كتابه إعلام الموقعين[2] . وتوفي رحمه الله سنة ثلاث وعشرين بعد صدوره من الحج شهيدًا .

- المعنى العام :

هذا الحديث أصل في التوكل وهو من أعظم الأسباب التي يستجلب بها الرزق؛ قال الله عز وجل ﴿**ومن يتق الله يجعل له مخرجا * ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه**﴾[3] . وقد قرأ النبي ﷺ هذه الآية على أبي ذر وقال له : «لو أن الناس كلهم أخذو بها لكفتهم» ، يعني لو حققوا التقوى والتوكل لاكتفوا بذلك في مصالح دينهم ودنياهم .

وحقيقة التوكل هو صدق اعتماد القلب على الله عز وجل في استجلاب المنافع ودفع المضار من أمور الدنيا والآخرة، والاعتقاد بأنه لا يعطي ولا يمنع ولا يضر ولا ينفع سواه عز وجل . قال سعيد بن جبير: التوكل جماع الإيمان . وقال وهب بن منبه : الغاية القصوى التوكل . قال الحسن : إن توكل العبد على ربه

---

(١) سورة التوبة ٨٤ .

(٢) إعلام الموقعين ج١ ص٨٩ إلى نهاية الجزء .

(٣) سورة الطلاق : ٢ ، ٣ .

أن يعلم أن الله هو ثقته. وفي حديث ابن عباس عن النبي ﷺ: «من سره أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله». وروي عنه ﷺ أنه كان يقول في دعائه: «إني أسألك صدق التوكل عليك»، وأنه كان يقول: «اللهم اجعلني ممن توكل عليك فكفيته»[1].

ومن الجدير بالذكر أن حقيقة التوكل لا تنافي اتخاذ الأسباب، فالسعي في الأسباب بالجوارح طاعة له، والتوكل بالقلب عليه إيمان به؛ قال الله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم**﴾[2]. وقال تعالى ﴿**وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل**﴾[3]. وقال: ﴿**فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله**﴾[4]. فاتخاذ الأسباب من الأهمية بمكان في نظر الإسلام وهذه هي الحقيقة التي شاء الله للجماعة المسلمة أن تتعلمها في غزوة أحد، حينما قصرت في اتخاذ الأسباب، وقصرت في أخذ مشورة القيادة مأخذ الجد في بعض مواقف الغزوة، وحينما قصرت في اتخاذ الوسائل المناسبة في بعض مواقفها، وفهمت أنه من مقتضى كونها مسلمة أن تنتصر حتمًا، فقال لها الله سبحانه ﴿**أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم**﴾[5]. ولقد تعلمت الجماعة المسلمة أهمية اتخاذ الأسباب لا بالكلام ولا بالعتاب، ولكن تعلمتها مع هذا بالدماء وبالآلام، ودفعت ثمنها غاليًا، متمثلاً في الهزيمة بعد النصر، والخسارة بعد الغنم، وفي سقوط العديد من الشهداء، ومنهم سيد الشهداء، حمزة رضي الله عنه[6].

---

(١) جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي، ص٥٢٨.
(٢) سورة النساء: ٧١.
(٣) سورة الأنفال: ٦٠.
(٤) سورة الجمعة: ١٠.
(٥) سورة آل عمران: ١٦٥.
(٦) راجع غزوة أحد، السيرة النبوية، للأستاذ الندوي.

وقال سهل التستري : من طعن في الحركة ــ يعني في السعي والكسب ـ فقد طعن في السنة . ومن طعن في التوكل فقد طعن في الإيمان . فالتوكل حال النبي ﷺ والكسب سنته فمن عمل على حاله فلا يتركن سنته .

وحديث «لو أنكم كنتم تتوكلون على الله حق توكله لرزقتم كما يرزق الطير» يدل على أن الناس إنما يؤتون من قلة تحقيق التوكل ووقوفهم على الأسباب الظاهرة بقلوبهم، فلذلك يُتعبون أنفسهم في الأسباب، ويجتهدون فيها غاية الاجتهاد، ولا يأتيهم إلا ما قدر لهم، فلو حققوا التوكل على الله بقولهم لساق إليهم أرزاقهم؛ بأدنى سبب، كما يسوق الطير إلى أرزاقها بمجرد الغدو والرواح، وهو نوع من الطلب أو السعي، لكنه سعى يسير .

وفي حديث جابر عن النبي ﷺ «لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب، خذوا ما حل ودعوا ما حرم» .

قال بعض السلف : توكل تسق إليك الأرزاق بلا تعب ولا تكلف . قال سالم بن أبي الجعد : حدثت عن عيسى عليه السلام كان يقول : اعملوا لله ولا تعملوا لبطونكم وإياكم وفضول الدنيا فإن فضول الدنيا رجز، هذا طير السماء يغدو ويروح ليس معه من أرزاقه شيء لا يحرث ولا يحصد ويرزقه الله، فإن قلتم إن بطوننا أعظم من بطون الطير فهذه الوحوش من البقر والحمير تغدو وتروح وليس معها من أرزاقها شيء لا تحرث ولا تحصد، يرزقها الله . خرجه ابن أبي الدنيا[1] .

وبعد كل هذا فالحديث لفتة عجيبة ولمحة نبوية لحقيقة التوكل وبيان لأثره . ومعنى قوله «لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله» أي تعلموا يقينًا أن لا فاعل

(١) راجع جامع العلوم والحكم، الحديث التاسع والأربعون، ص٥٣٠، ٥٣١، باختصار وتصرف .

إلا الله وأن لا معطي ولا مانع إلا هو ثم يأتي بعد ذلك سعيكم تجاه سبل العيش من باب اتخاذ الأسباب لا من باب أن الأسباب هي التي تنشئ النتائج فيتكل عليها.

فاتخاذ الأسباب عبادة وطاعة وتحقيق النتيجة قدر من الله، وبذلك يتحرر شعور المؤمن من التعبد للأسباب والتعلق بها، حينئذ يُرزق كما يُرزق الطير، والمؤمن يدرك جيدًا أن المقصود بها ليس إهمال الأرض وأسبابها؛ لأنه مكلّف بإحيائها وتعميرها، وإنما المقصود أن لا يعلِّق نفسه بها، وأن لا يغفل عن الله في عمارتها ليعمل في الأرض وهو يتطلّع إلى السماء وليأخذ بالأسباب وهو يستيقن أنها ليست هي التي ترزقه، فرزقه مقدّر في السماء ﴿**وفي السماء رزقكم وما توعدون * فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون**﴾[1].

والمسلم الحق هو الذي يفهم حقيقة التوكل الذي هو جزء من إيمانه وعقيدته، وعليه أن يتخذ من كافة الأسباب طريقًا لتحقيق هذه الغاية.

فالتوكل عند المسلم إذن هو تفويض وعمل مع هدوء قلب وطمأنينة نفس، واعتقاد جازم بأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وأن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

فالمؤمن يعيش آمنًا على رزقه؛ لأن الأرزاق في ضمان الله الذي لا يخلف وعده ولا يضيع عبده، وقد خلق الأرض مهادًا وفراشًا وبساطًا، وبارك فيها وقدر فيها أقواتها، وجعل فيها معايش، ووعد عباده فيها بكفالة الأرزاق، وكرر وأكد وأقسم عليه ﴿**وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها**﴾[2]، ﴿**وكأين من دابة**

---

(١) سورة الذاريات: ٢٢، ٢٣.

(٢) سورة هود: ٦.

﴿**وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم وهو السميع العليم**﴾[1].

بهذه الضمانات يعيش المؤمن حياته آمنًا على رزقه، مطمئنًا إلى أن الله لن يهلكه جوعًا، وهو الذي يطعم الطير في الوكنات، والسباع في الفلوات، والأسماك في البحار، والديدان في الصخور، «فلو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا». قال المناوي: أي تغدو بكرة وهي جياع، وتروح عشاء وهي شباع. فالكسب ليس برازق، بل الرازق هو الله. ولا يقصد بالتوكل التبطل والتعطل بل فيه من التوصل بنوع من السبب؛ لأن الطير ترزق بالسعي والطلب، ولهذا قال أحمد: ليس في الحديث ما يدل على ترك الكسب، بل فيه ما يدل على طلب الرزق[2].

هكذا كان ﷺ يربي أمته على مفاهيم التوكل المطلوب، ثم يختار لذلك مثالاً بديعًا من حياة الطيور وتحركاتها نحو مجالات الحياة، فهي تستيقظ في الصباح الباكر تسبح وتغرد ﴿**وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم**﴾، وبعد هذه العبادة المحببة تنطلق الطيور من أوكارها إلى ساحات الرزق من المزارع والبساتين، وإلى أماكن الحبوب والغلات، تنشط في البحث عن قوتها طوال النهار، وعندما تبدأ الشمس تميل إلى الغروب تعود هي إلى أعشاشها في أسراب وصفوف ممتلئة البطون ومنفذة لقوله تعالى: ﴿**وجعلنا الليل لباسًا وجعلنا النهار معاشًا**﴾ فحياة الطيور تمتاز بالانتظام في معاني التوكل، وباتخاذ الأسباب، وبالنشاط الدائب. هكذا المؤمن إذا اتخذ الأسباب وأدى الأمانة المطلوبة من العبادات والواجبات وانطلق نشيطًا دؤوبًا مؤمنًا بربه متوكلاً عليه واثقًا بوعده فيرزق كما يرزق الطير التي تغدو خماصا وتروح بطانا.

---

(١) سورة العنكبوت: ٦٠.

(٢) تحفة الأحوذي، ج٧، باب ما جاء في الزهادة في الدنيا.

ويقول ابن القيم إنه من منازل ﴿**إياك نعبد وإياك نستعين**﴾ منزلة التوكل ﴿**وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين**﴾، ﴿**ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير**﴾.

﴿**فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين**﴾، وقال عن أنبيائه ورسله: ﴿**وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا**﴾ وقال عن أصحاب نبيه: ﴿**الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانًا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل**﴾، وقال: ﴿**إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانًا وعلى ربهم يتوكلون**﴾.

وفي الصحيحين في حديث السبعين ألف الذين يدخلون الجنة بغير حساب «هم الذين لا يسترقون ولا يتطيرون ولا يكتوون وعلى ربهم يتوكلون». وفي الصحيحين أيضًا أن رسول الله ﷺ كان يقول: «اللهم لك أسلمت وبك آمنت وعليك توكلت وإليك أنبت وبك خاصمت...». وفي السنن عن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال ـ يعني إذا خرج من بيته ـ بسم الله توكلت على الله ولا حول ولا قوة إلا بالله يقال له هديت ووقيت وكفيت...».

فالتوكل نصف الدين والنصف الثاني الإنابة؛ فإن الدين استعانة وعبادة فالتوكل هو استعانة، والإنابة هي العبادة. وأولياء الله وخاصته، يتوكلون عليه في الإيمان ونصرة دينه وإعلاء كلمته، وجهاد أعدائه، وتنفيذ أوامره.

وأفضل التوكل التوكل في الواجب ــ أعني ــ واجب الحق وواجب الخلق وواجب النفس، وأوسعه وأنفعه التوكل في التأثير في الخارج في مصلحة دينية أو دفع مفسدة دينية، وهو توكل الأنبياء في إقامة دين الله ودفع فساد المفسدين في الأرض، وهذا توكل ورثتهم، ثم الناس بعد في التوكل على حسب هممهم

ومقاصدهم فمنهم من يتوكل على الله في حصول الملك ومنهم من يتوكل عليه في تحصيل الرزق .

- معنى التوكل ودرجاته :

قال الإمام أحمد : التوكل عمل القلب ومعنى ذلك أنه عمل قلبي ليس بقول اللسان ولا عمل الجوارح ولا هو من باب العلوم والإدراكات .

ومن الناس من يجعله من باب المعارف والعلوم فيقول هو علم القلب بكفاية الرب للعبد .

وسئل يحيى بن معاذ متى يكون الرجل متوكلاً؟ فقال : إذا رضي بالله وكيلاً . ومنهم من يفسره بالثقة بالله والطمأنينة إليه والسكون إليه .

قال ابن عطاء : التوكل ألا يظهر فيك انزعاج إلى الأسباب مع شدة فاقتك إليها ولا تزول عن حقيقة السكون إلى الحق مع وقوفك عليها .

- رأي ابن القيم في التوكل:

وحقيقة الأمر أن التوكل حالة مركبة من مجموعة أمور، لا تتم حقيقة التوكل إلا بها، وكل أشار إلى واحد من هذه الأمور أو اثنين أو أكثر.

فأوّل ذلك معرفة بالرب وصفاته، من قدرته وكفايته، وقيوميته وانتهاء الأمور إلى علمه، وصدورها عن مشيئته وقدرته. وهذه المعرفة أوّل درجة يضع بها العبد قدمه في مقام التوكل[1].

والتوكل على الله بهذه المفاهيم الشاملة سعادة يتمتع بها المؤمن في حياته بسكينة النفس، وطمأنينة القلب، وانشراح الصدر، ولا ريب أن لهذه الحالة

(١) مدارج السالكين، لابن قيم الجوزية ج٢، راجع فصل من منازل ﴿**إياك نعبد وإياك نستعين**﴾ ومنزلة التوكل، ص١١٢ ـ إلى ص١١٩ .

النفسية أثرها في الإنتاج، فإن الإنسان الشارد أو المضطرب أو القلق أو البائس قلما يحسن عملاً يوكل إليه أو ينتج إنتاجًا يقنع ويرضي، ومن علامات التوكل أن يرضى المؤمن بما قسم الله له من الرزق ويقنع بما قدر له من مواهب، ويشكر الله على ما قدره له من الحظ لأنه مؤمن بعدل الله فيما قسم من أرزاق وبحكمه فيما أعطى من مواهب، وبفضله ورحمته فيما وهب لعباده من حظوظ، وهذا هو معنى «التوكل» الذي حث عليه الرسول ﷺ.

إن الإنسان بطبيعته شديد الطمع والحرص على الدنيا لا يكاد يشبع منها، لذا هداه الله بهذا الحديث إلى الاعتدال في السعي للغنى، والجد في طلب الرزق، وبذلك يضمن التوازن في نفسه وفي حياته، ويبتعد عن الإفراط والغلو الذي يرهق النفس.

ولو ترك الإنسان مستسلمًا لنزعات حرصه وطمعه لأصبح خطرًا على نفسه وجماعته، من هنا كان لا بد من توجيه طموحه إلى قيم أرفع يقول تعالى: ﴿**ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى**﴾(١).

- فقه الحديث:

١ - كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون ويقولون: نحن متوكلون. فيأتون مكة فيسألون الناس، فأنزل الله: ﴿**وتزودوا فإن خير الزاد التقوى**﴾. وكذلك قال مجاهد وعكرمة والنخعي وغير واحد من السلف، فلا يرخص في ترك السبب بالكلية إلا لمن انقطع قلبه عن الاستشراف باليأس من الخلق.

---

(١) سورة طه: ١٣١.

٢ - عن الفضيل بن عياض أنه قيل: لو أن رجلاً قعد في بيته زعم أنه يثق بالله فيأتيه رزقه؟ فأجاب: لم يفعل ذلك الأنبياء، بل كان الأنبياء يؤجرون أنفسهم، وكان النبي ﷺ يؤجر نفسه وأبو بكر وعمر ولم يقولوا: نقعد حتى يرزقنا الله عز وجل. قال تعالى: ﴿**فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله**﴾. ولا بد من طلب المعيشة[1]. من كل ذلك يتجلى لنا بوضوح ضرورة التوكل مع السعي في تحصيل الرزق.

- ما يستفاد من الحديث:

١ - الإيمان المطلق بأن الرازق هو الله قولاً وعملاً.

٢ - ليس معنى التوكل ترك الأسباب المؤدية للرزق.

٣ - التوكل على الله طمأنينة للقلب وراحة للنفس.

---

(١) جامع العلوم والحكم لابن رجب ص٥٣٢. الحديث التاسع والأربعون.

الحديث التاسع: أثر الإلحاح في السؤال على المجتمع

حدثنا إسماعيل حدثني مالك عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**دعوني ما تركتكم إنما هَلَكَ مَنْ كان قبلكم بسؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بأمر فَأْتُوا منه ما استطعتم**».

- تخريج الحديث:

- فتح الباري، ج١٣ ص٢٦٦: كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ.

- صحيح مسلم بشرح النووي، ج٩ ص١٠٠، كتاب الفضائل، باب وجوب اتباعه ﷺ، وفي كتاب الحج، باب فرض الحج مرة في العمر، وبزيادة تبينّ مناسبة الحديث، عن محمد بن زياد عن أبي هريرة وفي كتاب الفضائل عن يونس عن ابن شهاب أخبرني أبو سلمة بن عبد الرحمن وسعيد بن المسيب كلاهما قالا.. كان أبو هريرة يحدث.

- ابن ماجه: مقدمة ١.

- النسائي: ج٥، كتاب مناسك الحج، باب وجوب الحج برواية محمد بن زياد عن أبي هريرة وإن اللفظ الذي أورده البخاري هنا أرجح من حيث الصناعة الحديثية لأنهما اتفقتا على إخراج طريق أبي الزناد دون طريق الزهري، وإن كان سند الزهري مما عد في أصح الأسانيد، فإن سند أبي الزناد أيضًا مما عدّ فيها، فاستويا، وزادت رواية أبي الزناد اتفاق الشيخين.

- المعاني اللغوية:

«ذروني ما تركتكم»: أي مدة تركي إياكم بغير أمر شيء ولا نهي شيء. قال ابن فرج «ذروني ما تركتكم»: لا تكثروا من الاستفصال عن المواضع التي تكون مفيدة لوجه ما ظهر ولو كانت صالحة لغيره، كما أن قوله «حجوا» وإن كان صالحًا للتكرار فينبغي أن يكتفى بما يصدق عليه اللفظ وهو المرة؛ فإن الأصل عدم الزيادة، ولا تكثروا التنقيب عن ذلك؛ لأنه قد يفضي إلى مثل ما وقع لبني إسرائيل.

﴿**فأتوا منه ما استطعتم**﴾: أي قدر استطاعتكم.

- المعنى العام:

هذا الحديث بهذا اللفظ خرجه مسلم وحده من رواية الزهري عن سعيد بن المسيب وأبي سلمة، كلاهما عن أبي هريرة، وخرجاه من رواية أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة.

وذكر مسلم من طريقين آخرين عن أبي هريرة بمعناه.

- مناسبة الحديث:

عن محمد بن زياد عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: خطبنا رسول الله ﷺ فقال: «يا أيها الناس قد فرض الله عليكم الحج فحجوا ـ فقال رجل[1]: أكل عام يا رسول الله؟ فسكت حتى قالها ثلاثًا، فقال رسول الله ﷺ: لو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم، ثم قال: ذروني ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بسؤالهم واختلافهم على أنبيائهم فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه»[2]. وقف النبي ﷺ وقفة الموجه الناصح ليحث أمته

(١) هو الأقرع بن حابس وهو من المؤلفة قلوبهم.
(٢) مسلم: باب فرض الحج مرة في العمر.

على أداء فريضة الحج ويفتح أمامهم باب التوبة والإنابة وآداب الوقوف أمام التجليات الربانية في موقف عرفة المشهود ويريد لأمته أن تتزود بزاد التقوى وليربي ﷺ أمته تربية شاملة بشتى التوجيهات وشتى التشريعات وليعلمهم الآداب، آداب الأسئلة، وآداب الكلام والأوقات المناسبة لتوجيه الأسئلة وليعد هذه الأمة بعقيدتها وتصوراتها وبمشاعرها واستجاباتها وسلوكها وأخلاقها لتكون مؤهلة لتحمل أعباء الخلافة والأمانة.

والحديث المذكور فيه أكثر من وقفة تربوية «فقال رجل: أكل عام يا رسول الله؟» والرسول ﷺ يلتزم الصمت بدلاً من الإجابة، ولكن السائل يلح في السؤال حتى قالها ثلاثًا، وإلحاح السائل يشير إلى أن هذه الأمة كانت في حاجة إلى مزيد من التوجيه في شتى مجالات الحياة وتوجيهها إلى الأدب الواجب مع رسول الله ﷺ وعدم سؤاله عما لم يخبرها به، وفيما لو أخبره بها لساء السائل وأحرجه أو ترتب عليه تكاليف لا يطيقها أو ضيق عليه في أشياء وسع الله فيها أو تركها بلا تحديد رحمة بعباده. قال تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم عفا الله عنها والله غفور حليم**﴾[1].

قال ابن كثير: هذا تأديب من الله تعالى لعباده المؤمنين ونهيٌ لهم عن أن يسألوا عن أشياء مما لا فائدة لهم في السؤال والتنقيب عنها؛ لأنها إن أظهرت لهم تلك الأمور ربما ساءتهم وشق عليهم سماعها. عن أنس بن مالك قال: خطب رسول الله ﷺ خطبة ما سمعت مثلها قط، وقال فيها: «لو تعلموا ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيرًا» قال: فغطّى أصحاب رسول الله ﷺ وجوههم ولهم خنين، فقال رجل: مَنْ أبي؟ فنزلت هذه الآية. والحديث يشير

(١) المائدة: ١٠١.

إلى مواقف تربوية عديدة، فيقف ﷺ وقفة الخطيب المربي ينذر ويبشر ويوجه ويحذر ويقول: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً»، فتأثر جمهور الصحابة من هذا الموقف المثير فدمعت عيونهم وانفعلت نفوسهم. والموقف يتطلب أن توجه الأسئلة حسب مفاهيم الخطبة المذكورة، ولكن رجلا ما يسأل فيقول: مَنْ أبي؟ وهذه المواقف تتكرر؛ لأن الأمة ما زالت في بداية الطريق، وما زال فيها كثير من رواسب الجاهلية وعادات البداوة. كما تظهر هذه الرواسب من الروايات التالية، ففي الصحيحين عن قتادة عن أنس قال: «سألوا رسول الله ﷺ حتى أحفوه في المسألة فغضب فصعد المنبر فقال: لا تسألوني اليوم عن شيء إلا بَيَّنْتُه، فقال رجل: كان إذا لاحى الرجل دعي إلى غير أبيه. فقال: يا رسول الله: مَنْ أبي؟ . . . إلخ. وخرّج ابن جرير الطبري في تفسيره ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء . . .**﴾ من حديث أبي هريرة قال: «خرج رسول الله ﷺ وهو غضبان محمارّ وجهه حتى جلس على المنبر، فقام إليه رجل فقال: أين أنا؟ فقال: في النار. فقام إليه آخر فقال: من أبي؟ قال: أبوك حذافة، فقام عمر رضي الله عنه فقال: رضينا بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمد نبيًّا وبالقرآن إمامًا، إنا يا رسول الله حديثو عهد بجاهلية وشرك، والله أعلم بآبائنا، قال: فسكن غضبه ونزلت هذه الآية ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم**﴾[1].

وهذه المواقف تحدث بين حين وآخر، وهناك أكثر من رواية تصور هذه المواقف، حدثنا أبو اليمان أخبرنا شعيب عن الزهري «أخبرني أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ خرج حين زاغت الشمس فصلى الظهر، فلما سلم قام على المنبر، فذكر الساعة وذكر أن بين يديها أموراً عظامًا، ثم قال من أحب

(١) فتح الباري ج١٣ ص٢٧٠ (كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة).

أن يسأل عن شيء فليسأل عنه، فوالله لا تسألوني عن شيء إلا أخبرتكم به ما دمت في مقامي هذا. قال أنس: فأكثر الناس البكاء وأكثر رسول الله ﷺ من قوله سلوني. فقال أنس: فقام إليه رجل فقال: أين مدخلي يا رسول الله؟ قال: النار. فقام عبد الله بن حذافة فقال: من أبي يا رسول الله؟ قال: أبوك حذافة. قال: ثم أكثر من قوله سلوني سلوني فبرك عمر على ركبتيه فقال: رضينا بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمد ﷺ رسولاً. قال: فسكت رسول الله ﷺ حين قال عمر، ثم قال رسول الله ﷺ: والذي نفسي بيده لقد عرضت علي النار والجنة آنفًا عرض هذا الحائط وأنا أصلي فلم أرَ كاليوم في الخير والشر»[1].

والحديث المذكور يتطلب وقفات تربوية متأنية ــ فالحديث يصور جنبات المسجد النبوي وواجبات القائد الرائد، وأنه ﷺ كيف كان يقوم على المنبر موجهًا ومحذرًا، وأن هذا الموقف جد خطير فإنه ذكر الساعة وذكر أن بين يديها أمورًا عظامًا، ثم قال في نهاية الحديث حالفًا: لقد عرضت عليّ الجنة والنار آنفًا فلم أر كاليوم في الخير والشر.

وهي كلها مواقف تحير العقول وتهز القلوب هزًّا، ومن هنا تأثر الناس وانفعلوا؛ قال أنس: فأكثر الناس البكاء.

أجل كل هذه المواقف تتطلب الانفعال والبكاء وتهدئة الأفكار وتطييب الخواطر بكلمات ملائمة، وسرعان ما أدرك ذلك عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ــ فبرك على ركبتيه بكل معاني الأدب والحب قائلاً: رضينا بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمد ﷺ رسولاً، حتى سكت رسول الله ﷺ حين قال عمر ذلك، وبعد ذلك بدأ عمر رضي الله تعالى عنه يطيب خواطر النبي ﷺ بكلمات

(١) فتح الباري، ج١٣، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة: باب ما يكره من كثرة السؤال ومن تكلف ما لا يعنيه.

ملؤهـا الأدب والحب ويتخللها الاعتذار: إنـا نتوب إلى الله عـز وجل. ثم يقول معقبًا: إنـا حديثـو عهد بجـاهلية يـا رسول الله» فـاسمح لنا واسمح لإخـواننا وتجاوز عن مثل هـذه الأسئلة: أين مـدخلي يـا رسول الله؟، ومن أبي يـا رسول الله؟ وأين ناقتي يا رسول الله؟ والحديث يشير إلى أن هذه الأسئلة المحرجة كانت في بداية المراحل التربوية بدليل قول عمر: إنـا حديثو عهد بجاهلية. ولذا حذر الـرسـول ﷺ في بـدايـة هـــذه المرحلـة من التسرع والإلحاح فبين معـالم الأسئلـة وآدابها. عن عـامـر بن سعـد بن أبي وقـاص عن أبيـه أن النبي ﷺ قـال: «إن أعظم المسلمين جـرمًـا من سأل عن شيء لم يحرّم فحـرم من أجل مسألتـه»[1]. وكـان النبي ﷺ ينهى عن قيل وقال وكثـرة السـؤال وإضاعـة المال، ونهاهم أن يسألوا عن مثل الذي سألت عنه النصـارى عن المائدة فأصبحوا بها كافرين **﴿إذ قـال الحواريون يـا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربك أن ينـزل علينا مـائدة من السماء قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين﴾**[2].

عن ابن عبـاس رضي الله عنه: **﴿لا تسألوا عـن أشياء﴾** قال: هي البحيرة والوصيلة والسـائبة والحام. وعن عكرمة رضي الله عنـه: أن المراد من هذا النهي عن سؤال وقوع الآيات كما سألت قريش أن يجري لهم أنهارًا وأن يجعل لهم الصفا ذهبًا[3].

وظل النبي ﷺ يوجـه أمته إلى إدراك معـاني الحكمة **﴿لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسـؤكم﴾**. وفي هـذا الموضوع مـا أخـرجه البـزار وقـال سنده صـالح وصححه الحاكم من حديث أبي الـدرداء رفعه «ما أحل الله في كتابـه فهو حلال وما حـرم فهو حرام ومـا سكت عنه فهو عفـو، فاقبلوا من الله عـافيته فإن الله لم

---

(١) فتح الباري، ج١٣، باب ما يكره من كثرة السؤال ص٢٦٤.
(٢) تفسير ابن كثير، سورة المائدة، ج٢ ص١٧٠.
(٣) المصدر نفسه.

يكن ينسى شيئًا. ثم تلا هذه الآية ﴿**وما كان ربك نسيًّا**﴾. وأخرج الدارقطني من حديث أبي ثعلبة رفعه «إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها وحد حدودًا فلا تعتدوها وسكت عن أشياء رحمة لكم غير نسيان فلا تبحثوا عنها»[1].

- أدب الصحابة في توجيه الأسئلة:

وقد أينعت ثمار هذه التربية الشريفة فاتخذ خيار الصحابة موقفًا خاصًّا نحو الأسئلة؛ فعن أنس - رضي الله تعالى عنه - قال: «كنا نهينا أن نسأل رسول الله ﷺ عن شيء، وكان يعجبنا أن يجيء الرجل الغافل من أهل البادية فيسأله ونحن نسمع».

أخرج أحمد عن أبي أمامة قال: لما نزلت ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء**﴾ الآية، كنا قد اتقينا أن نسأله ﷺ فأتينا أعرابيًّا فرشوناه بردة وقلنا: سل النبي ﷺ[2]. وهذا تطور جديد وخطوة مباركة نحو التأدب بأدب الرسول ﷺ والتأسي به والائتمار بأوامره. وهناك مثال آخر أكثر إثارة؛ فعن مسلم عن النواس بن سمعان قال: أقمت مع رسول الله ﷺ سنة في المدينة ما منعني من الهجرة إلا المسألة، كان أحدنا إذا هاجر لم يسأل النبي ﷺ، ومراده أنه قدم وافدًا، فاستمر بتلك الصورة ليحصل المسائل، خشية أن يخرج من صفة الوفد إلى استمرار الإقامة فيصير مهاجرًا فيمتنع عليه السؤال. وفيه إشارة إلى أن المخاطب بالنهي عن السؤال غير الأعراب وفودًا كانوا أو غيرهم[3].

ومعروف أن النواس بن سمعان كان من سكان الشام وفد للاستفادة والارتواء من مناهل النبوة الفياضة، واعتبر نفسه وافدًا زائرًا بزيارة عابرة، ولم

---

(١) فتح الباري، ج١٣، باب ما يكره من كثرة السؤال، ص٢٦٦.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) فتح الباري، ج١٣، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب ما يكره من كثرة السؤال، ص٢٦٦ (باختصار وتصرف).

يفكر في الإقامة الدائمة حتى لا يعد من المهاجرين المقيمين فينطبق عليه شروط النهي عن الأسئلة. والمثال قمة في الأدب وروعة في الحرص ونموذج حتى لطالب العلم المتعطش لمعرفة شتى المجالات في ميادين العلم والعمل.

- من الأسئلة غير الموضوعية إلى الأسئلة العلمية والعملية:

وبعد هذه الخطوة التربوية والتطور الرائع الذي يظهر خلال صياغة الأسئلة وخلال الغزوات والابتلاءات ظهرت في هذا المجتمع الجديد ظاهرة الأسئلة العلمية والدعوية ﴿**يسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير**﴾، ﴿**يسألونك ماذا أحل لهم**﴾، ﴿**يسألونك عن الخمر والميسر**﴾، ﴿**يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج**﴾، وفي مجال الإنفاق نزلت آيات كثيرة، وكانت الأمة تعودت على طريق الإنفاق حسب العادات والتقاليد القديمة، أما في المجتمع الجديد أصبح الإنفاق ضرورة كانت تواجه هذا التطور السريع، ثم هو ضرورة من ناحية التضامن والتكافل، قال ابن عباس: إن الآية ﴿**يسألونك ماذا ينفقون**﴾ نزلت في عمرو بن الجموح الأنصاري، وكان شيخًا كبيرًا ذا مال كثير فقال: يا رسول الله، بماذا نتصدق؟ وعلى مَنْ ننفق؟[1].

هكذا تتوارد الأسئلة المتنوعة وتتجدد حبًّا في معرفة أبعاد هذا الدين، وتبيان القيم الإسلامية الجديدة، وهي ظواهر مبتكرة في هذه البيئة المتطورة، يسأل فيها المسلمون نبيهم عن شؤون شتى، هي الشؤون التي تصادفهم في حياتهم الجديدة. ﴿**يسألونك عن المحيض قل هو أذى**﴾ وهذه الظاهرة الجديدة دليل على تطور ونماء في صور الحياة وعلاقاتها الاجتماعية، حيث أراد المسلمون أن يتعرفوا على أوضح المسالك وفق تصورهم.

---

(١) راجع كتاب (مجتمع المدينة المنورة كما يصوره القرآن) باب التربية بالقدوة والقيادة، للمؤلف.

- موقف الإسلام من افتراض المسائل قبل وقوعها:

كان كثير من الصحابة والتابعين يكرهون السؤال عن الحوادث قبل وقوعها ولا يجيبون عن ذلك. خرج عمر ـ رضي الله عنه ـ على الناس فقال: أحرج عليكم أن تسألوني عما لم يكن فإن لنا فيما كان شغلاً. وعن ابن عمر رضي الله عنه قال: لا تسألوا عما لم يكن فإني سمعت عمر ـ رضي الله عنه ـ لعن السائل عما لم يكن. وكان زيد بن ثابت إذا سئل عن شيء يقول: كان هذا؟ فإن قالوا: لا قال: دعوه حتى يكون. وعن الصلت بن راشد قال: سألت الطاووس عن شيء فانتهرني فقال: أكان هذا؟ قلت: نعم قال: آلله؟ قلت: آلله. وقريب من هذا النوع الأغلوطات وقد روى الصنابجي عن معاوية عن النبي ﷺ أنه نهى عن الأغلوطات. خرجه الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ وفسره الأوزاعي، وقال: هي شداد المسائل.

ويروى من حديث ثوبان عن النبي ﷺ: «سيكون قوم من أمتي يغلطون فقهاءهم بعضل المسائل أولئك شرار أمتي». وقال الأوزاعي: إن الله إذا أراد أن يحرم عبده بركة العلم ألقى على لسانه المغاليط، فقد رأيتهم أقل الناس علماً. وقال أيضًا: سمعت مالكًا وهو يعيب كثرة الكلام وكثرة الفتيا.

وهذه بعض مواقف السلف، مواقف الشرف والسمو، مواقف الأدب وتكريم العلم، ما أحوجنا أن نتأدب بأدبهم؛ لأن هذه الأغلوطات عقبات في طريق العلم والعمل به، وعوائق أمام طلاب العلم ينزلق فيها الكثير منهم وكثيراً ما يؤدي هذا إلى المراء والجدال.

وقال وهب: «سمعت مالكًا يقول: المراء في العلم يقسي القلب ويؤثر الضغن»[1].

---

(١) راجع جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي ص١٠٨: ١١٧ (بتصرف واختصار).

ونظـرًا لهذه الأوجـه العلميـة اعتبر الإمام النـووي هـذا الحديث من قـواعـد الإسلام المهمـة ومن جوامع الكلم التي أعطيهـا ﷺ. ويدخل فيـه ما لا يحصى من الأحكـام، كـالصـلاة بأنـواعهـا، فـإذا عجـز عن بعض أركـانها أو بعض شروطها أتى بالباقي. . .[1].

- فقه الحديث:

١ - «إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم» الأمر هنا للندب.

قال النـووي : هذا من جوامع الكلم وقـواعد الإسلام ويـدخل فيه كثير من الأحكـام كـالصـلاة لمن عجـز عن ركـن منهـا أو شرط فيأتي بـالمقـدور، وكـذا الوضوء، وستر العورة، وحفظ بعض الفـاتحة، وإخراج بعض زكاة الفطر لمن لم يقدر على الكل، والإمساك في رمضـان لمن أفطر بالعذر ثم قـدر في أثناء النهار، إلى غير ذلك من المسائل[2].

منها الطهارة، فإذا قدر على بعضها وعجـز عن الباقي إما لعدم الماء أو لمرض في بعض أعضـائه دون بعض فإنه يأتي من ذلك بما قـدر عليه، ويتيمم للبـاقي وسـواء في ذلك الـوضـوء والغسل على المشهـور، ومنهـا الصـلاة، وفي صحيح البخـاري عن عمـران بن حصين ـ رضي الله عنـه ـ أن النبي ﷺ قـال : «صل قـائما فإن لم تستطع فقـاعدًا فإن لم تستطع فعلى جنبك فإن عجـز عن ذلك كلـه أومأ بطرفه وصلى بنيته»[3].

«ذروني مـا تـركتكم» دليل على أن الأصل عـدم الوجـوب وأنـه لا حكم قبل ورود الشرع، وهذا هـو الصحيح عند محققي الأصـوليين؛ لقولـه تعالىٰ : ﴿**وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً**﴾[4].

---

(١) صحيح مسلم للنووي، باب الحج مرة في العمر ج٩ ص١٠٠.
(٢) فتح الباري ج١٣، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة.
(٣) جامع العلوم والحكم، لابن رجب الحنبلي ص١١.
(٤) فتح الباري ج١٣ كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة.

«وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه» فهو على إطلاقه، فإن وجد عذر يبيحه كأكل الميتة عند الضرورة، أو شرب الخمر عند الإكراه، أو اللفظ بكلمة الكفر إذا أكره، ونحو ذلك فهذا ليس منهيا عنه. والله أعلم[1].

٢ - «وإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه» وهذا النهي عام في جميع المناهي، ويستثنى من ذلك ما يكره المكلف على فعله كشرب الخمر، وهذا على رأي الجمهور.

- ما يستفاد من الحديث:

الحديث نموذج جميل لتطور البيئة المدنية، ويشير إلى الخطوة التربوية الرائعة التي ظهرت خلال صياغة الأسئلة العلمية والدعوية، فتحولت الأسئلة من «من أبي؟ . . » إلى ﴿**يسألونك ماذا ينفقون**﴾.

(١) صحيح مسلم : باب فرض الحج مرة في العمر، ج٩ ص١٠٢.